

كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي



الإسلام
وأثره في الثقافة العالمية

محمود الشرقاوي

ربيع الآخر ١٤١٦هـ ـ العدد ١٦٠ السنة الرابعة عشرة



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الاسلام دين عام شامل، يتناول شؤون الحياة كلها، وهو نظام كامل، ينظم أمور الدين والدنيامعا، جاء به رسول الهدى ﷺ وقام بنشره والدعوة اليه الهداة من سلفنا الصالح، فنجحوا في تزكية النفوس، وتطهيرها بقدر ماأصلحوا من حياة الناس، وبلغوا في ذلك شأنا لم ينله أحد من المصلحين أو كبار المربين.

انتشر الاسلام ديناً وظهر الاسلام دولة، وامتدت هذه الدولة لتشمل أجزاء كبيرة من العالم القديم، وقامت الدولة الاسلامية الكبرى التي امتدت من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.

وانتقل الاسلام ليكون ديناً دون أن يرافقه حكم العرب المسلمين إلى أقطار أخرى كأندونيسيا والصين والفلبين وأجزاء وسط افريقيا.

وامتزج تحت الحكم العربي الاسلامي أبناء شعوب كثيرة اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ولكنها جميعا استظلت تحت دولة الاسلام.

تمتع العرب بقوة نشاطية لا مثيل لها تحدد عصرا مميزا في تاريخ العالم أما ميولهم فكانت مضادة لروح التعصب، ولذلك استطاعوا أن يندمجوا في الشعوب التي انتصروا عليها، كما انه ينبغي أن نضع في حسباننا استعدادهم الطبيعي لاستعمال ملكاتهم العقلية[١].

---

(١) ل. أ. سيديو: تاريخ العرب العام ٢/٣ – ٤.

كما كان للعرب أدب رفيع تمثل فيما قالوا من شعر اتصف بالحكمة والخيال وصفاء النفس وقوة الروح، وطبع بمبادىء أخلاقية مثلتها الفروسية العربية، كما نستطيع أن ندرك ماستبد بنفسيتهم عندما اختلطوا بثقافات الشعوب التي فتحوها من رغبة ملحة إلى التعرف على هذه الثقافات، فأصبح التعليم في الدولة العربية الأساس الأول الذي قامت عليه دعائمها.

يقول الأستاذ «هوكينج» في كتابه عن مبادىء السياسة العالمية، مستقبل الحضارة العربية: إن الشغف بالعلم،والتعطش الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها هؤلاء العرب، وهي التي تمد عبقرياتهم بالقوة ويعشقون الحرية ويتطلعون دوما إلى المثل العليا، بدون تعصب ولا تزمت».

ويقول آلبر شامدور في كتابه «حمراء غرناطة» لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رمالها، فاتخذ النجوم دليلا، والعلم مرشدا، واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم، في أقل من مائة عام أيضا، وترك لنا في حمراء غرناطة، آثار علمه وفنه، آثار مجده وفخاره».

ورث المسلمون مع فتوحهم فلسفة اليونان، وأفادوا من ثقافة الفرس والهند والصين والثقافة العربية الأصيلة، وأفسحوا صدورهم لهذه الثقافات والحضارات المختلفة، وأقبلوا عليها، وتولوها بالرعاية والعناية والبحث والدرس، والتصحيح والتهذيب، وأضافوا اليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها، وتميزت عما عداها من الحضارات السابقة.

والحضارة الاسلامية لا ينتقصها ولا يقلل من شأنها أنها أفادت من الحضارات التي سبقتها، فإن نتائج العلوم وثمرات الأفكار كالماء والهواء لا تحدها الأقطار،ولا تحاجز دونها الأمصار، لأنها لا تقع في قبضة أحد، وإن فكرة سامية تجود بها خاطرة عالية لا تلبث أن تنتشر في الآفاق انتشار النور في الظلمة،وتنقشع بها غياهب الجهالة في كل مكان حلت فيه.

لقد أضاءت الحضارة الاسلامية الطريق لأوربا، فقامت حضارتها وتقدمت في خطى ثابتة واسعة حتى وصلت إلى منتهى ماأمكن للعقل البشري أن يصل اليه.

وكان من الطبيعي أن تزدهر الأمة الاسلامية وتقوى شوكتها في كل الميادين وخاصة الناحية العلمية والثقافية لأن التشريع الاسلامي ركز على العلم والتعلم حتى كانت أول آيات القرآن الكريم نزولا توجه إلى العلم والتعلم، وانما كان ذلك حينما كانت الأمة الاسلامية مستمسكة بتعاليم الدين وأحكامه وتسير في ضوء تعاليمه وارشاداته.

ولقد عقدت مؤتمرات دولية في العصر الحديث في لاهاى سنة ١٩٤٩ وفي باريس سنة ١٩٥١ بحثت فيها بعض أحكام التشريع الاسلامي ونظرياته وقرر المؤتمرون أن الشريعة الاسلامية مصدر خصب من مصادر التشريع العام (القانون المقارن) وأنها شريعة حية صالحة للتطور.

ونحن على ثقة من أن الفقه الاسلامي بمذاهبه العديدة وآرائه المختلفة اذا استوعبت أحكامه وأجهد الفقهاء في العصر الحاضر أنفسهم لمواجهة الحياة مواجهة فعلية، ونظروا في كل جديد على

ضوء روح التشريع وأسسه القويمة، ودعائمه القوية لمَّا تخلفنا عن الركب الحضارى ولأمكننا السير في الطليعة ولاستحال على الجاحد المبغض أن يصف الاسلام بوصف غير أنه تقدمي يحث على البحث والنظر والاجتهاد للتعرف على مايمكن للعقل ادراكه مما في الكون من أسرار والأخذ بكل مايفيد البشرية من علوم ومعارف.

ومأحوجنا نحن أبناء هذه الحضارة اليوم لدراستها، ومأشد حاجتنا إلى التعرف على أصولها ومقوماتها، وإلى التنقيب عن مكامن منابعها التي طمرتها الأيام، وليس من أجل أن نتباهى بماض اندثر، ولكن لكي نعمل على استعادة ماضينا المجيد ونتيقظ لما يجرى من حولنا في هذه الحياة ونأخذ دورنا الرائد فيها.

والعالم الاسلامي في حاجة إلى مراجعة تاريخية لمعرفة نفسه والعثور على جوهره الحقيقي في هذا الصراع الثقافي والاقتصادى والسياسي الذي يواجهه لاثبات ذاته، ولنقرأ هذه الصفحات لتكون لنا حافزا على العمل الجاد، ولنتذكر ونتدبر بعمق، ولنعد لاسلامنا كي تعود لنا حضارتنا الانسانية الوارفة الظلال.

والله تعالى نسأل أن يوفقنا إلى الخير دائما وأن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها، ولقد تكفل القرآن المجيد باصلاح هذه الأمة، فليس هناك من أمل في فلاح ولارجاء في تقدم ورقي الا أن نأخذ هذاالكتاب بقوة ونعتصم به وندور حول رايته مستهدفين روحه من أجل اسعاد البشرية.

والله ولي التوفيق،

محمود على الشرقاوى

الفصل الأول

- العلم فى الإسلام .
- مراكز العلم فى الدول الإسلامية :
  ١- المساجد .
  ٢- الكتاتيب .
  ٣- مدارس الكبار .
  ٤- مجالس العلماء .
  ٥- المكتبات .
- الفتح الإسلامى وأثره في الثقافة .
- عناية علماء المسلمين بنشر الثقافة العالمية عن طريق الترجمة .



العلم في الاسلام

دعى الاسلام إلى العلم، وحث الناس على التزود منه ودفعهم إلى ذلك دفعا قويا بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾ : « سورة طه : الآية ١١٤ ».

وقال جل شأنه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** ﴾ « سورة آل عمران : الآية ١٨ » فانظر كيف أبدى سبحانه وتعالى بنفسه،وثنى بالملائكة، وثلث بأهل العلم،وناهيك بهذا شرفا ،فضلا ، وجلاءونبلا .

وقال تعالى ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ « سورة الزمر الآية ٩ » . وقد كان أول نداء إلهي يفتتح به الله باسم « الربوبية » وحيه إلى نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، تلكم الآية الكريمة : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم.الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم** ﴾ « سورة العلق : الآيات ١ـ ٥ » .

أمر بالقراءة، والقراءة طريق العلم والمعرفة، ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم « الرب » مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق، فيشعر الانسان بعزة شأنها ورفعة قدرها، وأنها من الشؤون العظمى ، ذات البال والخطر، ثم يذكر خلقه وتكوينه في هذا المقام ويردفه بنعمة العلم : ﴿ **الذي علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم** ﴾ وبذلك يسوى بين نعمة الخلق والايجاد، ونعمة العلم، ويكون ذلك

ايحاء بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده في هذه الحياة وتنويها بشأن القلم ومكانته في العلم والمعرفة، يقسم به الله تعالى في معرض تبرئة الرسول عليه الصلاة والسلام من أفدح التهم الباطلة التي ألصقها القوم به عليه السلام وهي تهمة الجنون: ﴿**ن والقلم ومايسطرون .ماأنت بنعمة ربك بمجنون**﴾

« سورة القلم الآيتان ١–٢ ».

والعلم هو نور البصر والبصيرة، بينما الجهل هو الظلمة، بل والعمى ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ « سورة الرعد: الآية ١٩ ».

والعلم هو السر والسبب الذي من أجله استحق الانسان شرف الخلافة في الارض، عن الله سبحانه وتعالى، ففاز بهذا الشرف دون سائر المخلوقات: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون**﴾ « سورة البقرة: الآيات ٣٠–٣٣ ». فتجلت للملائكة حكمة استخلاف الانسان في الأرض، واعترفوا له بالمكانة التي أعدت له في هذه الحياة.

والسنة النبوية تفيض في ذكر الأحاديث التي ترفع مكانة

العلماء. قال الرسول الكريم: (**مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة**) رواه الإمام أحمد. وقال عليه الصلاة والسلام: (**من سلك طريقا يبتغي به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**)
«رواه الترمذي، وابن ماجه، وأبو داود، والدرامي وابن حنبل».

والعلم ليس خاصا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام وإنما العلم هو ادراك يفيد الانسان توفيقا في القيام بمهمته العظمى التي القيت على كاهله منذ قدر خلقه، وجعل خليفة في الأرض، وهى عمارتها، واستخراج كنوزها، واظهار أسرار الله تعالى فيها.

فعلم مايصلح به النبات وينمو ويثمر، وماتستنبت به الأرض وتحيا، علم مطلوب دراسته وتعلمه. ومايصلح الحيوان ويسخره لخدمة الانسان واكتمال الانتفاع به علم يدعو القرآن إلى تعلمه. وطرق الكسب المشروعة لتحصيل المال واستثماره على الوجه الذى ينظم موارده ومصارفه علم يجب التعرف عليه والتسلح به.

والتعرف على الصناعات بأنواعها التي تيسر للانسان سبل الحياة وتمكنه من الانتفاع بالقوى الكامنة فيما خلق الله هو علم مطلوب منا الوقوف عليه.

ومايحفظ به الأنفس من التهلكة بمقاومة الأمراض والعلل وطرق علاجها والوقاية منها، وكل مايحقق للناس الشفاء والصحة علم يجب التزود به.

وكل مايمكن اعداده من قوى يدفع بها الأذى والعدوان، ونرهب به من تحدثه نفسه العبث بالأمن والسلام علم يجب التعرف عليه والاستفادة منه لاقرار الأمن والسلام. كل هذا وغيره مما يفيد البشرية وينفعها أو الأصل فيه ذلك من العلم الذي حث القرآن، وحثت السنة النبوية على تعرفه والتزود به.

وبذلك كله كان العلم هو العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الاسلام، وهذا مادفع بعض المفسرين إلى تفسير «العمل الصالح» بأنه العمل القائم على العلم، وليس على الظن والوهم[١].

يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾ «سورة البقرة: ٢٦٩».

مايلى «الحكمة» هنا العلم الصحيح، يكون صنعه محكمة في النفس، حاكمة على الارادة، توجهها إلى العمل.... ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح المؤدى إلى السعادة، وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة، لا تفيده هذه الصور التي تسمى علما- في التمييز بين الحقائق والأوهام، لأنها لم تتمكن في النفس

---

(١) ليس في الاسلام عمل صالح يقوم على الظن والوهم». مصححه.

تمكنا يجعل لها سلطانا على الارادة، وإنما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل.

والمراد بايتائه الحكمة من يشاء، اعطاء آلتها- العقل- كاملة،مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة، فالعقل هو الميزان القسط الذي توزن به الخواطر والمدركات، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والالهام.

إن الله جعل الخير الكثير مع الحكمة في قرن - فالحكمة هي العلم الصحيح المحرك للارادة إلى العمل النافع الذى هو الخير. وآلة الحكمة، هي العقل السليم المستقل بالحكم في مسائل العلم، فهو لا يحكم الا بالدليل، فمتى حكم جزم، فأمضى وأبرم، فكل حكيم، عليم، عامل، مصدر للخير الكثير، ولذلك قال تعالى: ﴿ **ومايذكر الا أولوا الألباب** ﴾ «البقرة ٢٦٩» وقد جرت سنته تعالى بأنه لا يتعظ بالعلم، ولا يتأثر به تأثرا يبعث على العمل الا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب [(١)].

وقد أدرك المسلمون الأولون ايحاء القرآن في كل ذلك فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته في سعادة الأمم والأفراد. كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، يقول البلاذرى في كتابه «فتوح البلدان» «ان الاسلام دخل وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب هم: عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعثمان بن عفان....» فإذا كانت

---

(١) محمد عبده: تفسير المنار جـ٣، ص ٣٥ ومابعدها..

قريش وهي التي لها الصدارة في الحجاز ليس فيها الا سبعة عشر كاتبا فكيف بغيرها؟ ولندرة الكتاب وأهمية الكتابة كان يلقب كل من يجيد الكتابة والرمى بالسهم بالكامل مثل سعد بن أبي عبادة.

لقد جد المسلمون فى محو أميتهم بكل الوسائل، وكان أول قانون لمحو الأمية في المجتمع الاسلامي بعد غزوة بدر الكبرى حيث أسر المسلمون سبعين أسيرا فكان يفادى بهم على قدر أموالهم فمن لم يكن له فداء وكان يجيد الكتابة طلب منه تعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

وحث الرسول الصحابة على تعلم اللغات الأخرى. فعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني أكتب إلى قوم وأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية [١] فتعلمها في سبعة عشر يوما.

ولم يختص الرسول الرجال بالعلم والتعليم، بل إنه كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً. فعن أبي سعيد قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: يارسول الله، ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله. فقال اجتمعن في يوم كذا وكذا فأتاهن فعلمهن مما علمه الله» أخرجه البخاري.

روى البلاذرى في كتابه «فتوح البلدان» أن الشفاء العدوية، وهي سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب، كانت كاتبة في الجاهلية، وكانت تعلم الفتيات، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها

---

(١) ابن الاثير: أسد الغابة جـ ٢، ص ٢٧٩.

القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام. ولما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تعليمها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة وروى الواقدى أن عائشة وأم سلمة زوجتى الرسول عليه الصلاة والسلام تعلمتا القراءة والكتابة، وأنهما كانتا تقرآن. وتدل شواهد كثيرة، أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفهما كانت مفتحة على مصارعها للبنت العربية منذ عصر بني أمية، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات، وبرزن في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الاسلام. فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب، كان لها بمصر مجلس علم حضره الامام الشافعي نفسه، وسمع عليها فيه الحديث، وعد أبوحيان من بين أساتذته ثلاثا من النساء هن: مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل (أخو صلاح الدين الأيوبي)، وشامية التيمية، وزينب بنت المؤرخ الرحالة عبداللطيف البغدادي.

لقد قرر الاسلام أن يعامل الناس جميعا على قدم المساواة في الحقوق العامة كحق التعليم والثقافة بدون تفرقة بين شريف ووضيع، ولا بين غني وفقير، ولا بين قريب وبعيد، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين رجلَ وامرأة، فالعدالة الاسلامية لها ميزان واحد يطبق على جميع الناس.

وقد بدأت حركة التعليم والعلم في الدولة الاسلامية منذ نشأتها

وتطور مراكز نقله من المسجد إلى الكتاتيب ثم المدارس والجامعات. ولقد خرجت هذه المراكز جماعة من أعظم الرجال والعلماء الذين علموا وخرجوا من تحتهم الفقهاء والعلماء وكبار المفكرين.

وظهر من علماء مكة رعيل الصحابة الأول مثل: معاذ بن جبل، وعبدالله بن العباس، ومن التابعين: مجاهد بن جبير،وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وقد تخرج من مدرسة مكة طائفة من العلماء كان منهم الامام الشافعي.

وفي المدينة تعلم الصحابة علوم الدين على يد الرسول الكريم وتخرجوا من مدرسته، ومن أشهر من تخرج من هذه المدرسة من الصحابة: على بن أبي طالب- كرم الله تعالى وجهه-، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن مسعود وغيرهم. وقد ارتحل بعض هؤلاء العلماء وغيرهم إلى الأمصار لتفقيه الناس في أمور دينهم، وعقدوا مجالسهم العلمية في المساجد فكانوا أساس الحركة العلمية في الأمصار[١].

وكانت عناية المسلمين في صدر الاسلام مقصورة على العلوم الدينية والشرعية ولكن مع قيام الدولة الأموية بدأ الاهتمام بالعلوم الأخرى، وقد بلغت الحركة العلمية ذروتها في المجالين النقلى والعقلى[٢] في العصر العباسي.

---

(١) أحمد أمين: ضحى الاسلام جـ٢، ص ٧٣-٧٤.

(٢) العلوم النقليةهي: علم القراءات،وعلم التفسير، والفقه، والنحو، واللغة والأدب، والعلوم العقلية هي: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم والموسيقى. والطب والكيمياء، والتاريخ والجغرافيا.

مراكز العلم في الدولة الاسلامية

١ــ المسجد : كان المسجد هو المدرسة الأولى في الاسلام، وقد عقدت فيه حلقات الدرس والتدريس إلى جانب كونه دارا للعبادة. وكان مسجد الرسول قلب المدينة النابض بالحياة ومركز خدمة المجتمع [1] الاسلامي ومجمع أهل الرأى والشورى، ومحور أنشطة الدولة ومصالحها المتعددة. فقال عنه الامام ابن تيمية: إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسسه على التقوى، وكان فيه « الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات، وتأمير الامراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم[2].

كان الرسول هو المعلم الاول في الاسلام، وكان يتخذ مسجده مقرا للدرس والتعليم، وقد ظل مسجد الرسول بالمدينة كذلك مقرا للتعليم عل عهد الخلفاء الراشدين، وكان المعلم يجلس في جزء من المسجد ومن حوله يلتف طلاب العلم في حلقات، وكان طالب العلم يحضر حلقة أستاذه وشيخه وعندما يستكمل محاضرات أستاذه وينجح فيها يجيزه أستاذه ويسمح له بتعليم الفرع الذي درسه وأتقنه في حلقة مستقلة يقوم بالتدريس فيها[3].

وكان العلماء الذين يدرسون في المساجد لا يتقاضون أجرا

---

(١) في سيرة أحمد بن ابراهيم الجزار– وهو من أعظم أطباء المسلمين وكان قيروانيا– أنه كان يخرج بعد صلاة العشاء ويقف على باب الجامع ليداوي المرضى من الفقراء، وكان يصطحب عبدا يحمل أصناف الأدوية فيعطيهم منها مايرى، وكان يعمل ذلك حبا في الله، وبرا بأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى هذا كان الكثيرون من صلحاء أهل الطب (د. حسين مؤنس: المساجد. الكويت ربيع الأول ١٤٠١هـ، ص ٤ ».

(٢) على عبدالحليم محمود: المسجد وأثره في المجتمع الاسلامي، ص ٣٣.

(٣) أحمد أمين: ضحى الاسلام، جـ٢، ص٥٢.

على تدريسهم فقد كانوا يبتغون الأجر من الله تعالى، وكان الطلاب يفدون اليهم من البلاد النائية تاركين أوطانهم وأهليهم ابتغاء تحصيل العلم.

وقد اتسعت المساجد في العهد الأموى وازداد عددها، وكانت حلقات هذه المساجد النواة العلمية للدراسات الجامعية في أسلوبها الذي يعتمد على المناقشة والمناظرة. وكان القرآن المجيد هو محور علوم المسلمين، ومن مدارسته ظهر علم التفسير وعلم الحديث، كذلك ظهر الاهتمام بعلوم اللغة والتاريخ، وتشعبت الدراسة عند المسلمين بعد ذلك إلى بقية العلوم العملية. واضافة إلى التعليم في المساجد عرف المسلمون منذ العصر الأموى التعليم في الكتاتيب وفي المدارس.

٢- الكتاتيب:

انشئت الكتاتيب، ومفردها «كتاب» لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ومبادىء علم الحساب، وكان الكتاب أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجودا في العالم الاسلامي بعد المسجد، وكان بداية ظهوره في العهد الأموى. وكانت هذه الكتاتيب تستقبل الصبيان والبنات على حد سواء، وبذلك سبق العرب منذ ألف عام العالم كله في إباحة حق تعليم المرأة، وهو فضل للعرب على الحضارة العالمية لا يمكن انكاره[١].

وقد استمرت هذه الكتاتيب قائمة تؤدى دورها التعليمي على

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني: فضل العرب على الحضارة العالمية. محاضرة في العام الجامعي ٥٨- ٥٩، ص١٢٠.

أحسن وجه في العالم الاسلامي حتى العصر الحديث، ولكن للأسف ألغى نظام الكتاتيب في القرن الحالى من كثير من بلاد العالم الاسلامى وان ظلت بعض الكتاتيب في بعض البلدان وحملت اسم الزوايا أو الخلاوي[١].

٣- مدارس الكبار:

وهي مدارس ينتقل اليها الطلاب بعد إكمال دراستهم بالكتاتيب من اتمام للقرآن ومعرفة لقواعد اللغة والحساب وهي مدارس متخصصة يذهب اليها التلاميذ للتخصص في نوع من أنواع العلوم.

وكانت بداية نشأة هذه المدارس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وكانت أول مدرسة انشئت من هذا النوع «المدرسة الصادرية» التي انشئت في الشام سنة ٣٥٠ هـ. وأسست في منتصف القرن الخامس سلسلة من المدارس على نسق المدرسة الصادرية، وتأتي في مقدمتها المدرسة البيهقية في نيسابور والمدرسة السعدية بها[٢].

وتأتي المدرسة النظامية في بغداد أشهر مدرسة أسست على نظام نموذجي نسجت على منواله المدارس في مدن العالم الاسلامي الرئيسية، وتنتسب المدرسة النظامية، إلى الوزير نظام الملك، وزير السلطان السلجوقى« ألب أرسلان »سنة ٤٥٩هـ[٣].

---

(١) تسمى الكتاتيب بالزوايا في ليبيا، بينما تسمى بالخلاوى في السودان.

(٢) ناجى معروف: نشأة المدارس المستقلة في السالام.بغداد ١٩٦٦، ص ٤ / ٥.

(٣) أحمد الشطى: مجموعة أبحاث في الحضارة الاسلامية، دمشق ١٩١٣، ص٩٠.

وقد استمر تأسيس المدارس في بغداد حتى بداية القرن السابع الهجري، فقد أسس الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٢٥هـ فيها المدرسة المستنصرية،ووصل عدد هذه المدارس ببغداد سنة ٦٥٦هـ ثمان وثلاثين مدرسة[١].

وقد شاع تأسيس مثل هذه المدارس في جميع الحواضر الاسلامية، وحدثنا بذلك الرحالة المسلم ابن جبير، الذي زار الشام والعراق ومصر في أواخر القرن السادس الهجري، وكتب عن هذه المدارس ووصفها في كتاب رحلته الشهير.

وكان نصيب مصر كبيرا من هذه المدارس في عصر الفاطميين والأيوبين والمماليك، فقد بلغ عدد مدارس القاهرة وحدها،وفي عهد الفاطميين، نحو عشرين مدرسة، وأسس الخليفة الحاكم بأمر الله بها دارا عامة للعلم أسماها دار العلم أو دار الحكمة، قرر لها المدرسين والمعيدين وألحق بها مكتبة كبيرة امتلأت بالمؤلفات النادرة.

ومن أشهر مدارس الأيوبيين: المدرسة الصلاحية بالقدس، وكان قد أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي، والمدرسة العادلية بدمشق، التي بناها أخوه الملك العادل، والمدرسة المهذبية بالقاهرة، والناصرية بالفسطاط، وقيل أن مدارس الأيوبيين في مصر قد وصلت إلى نحو خمسة وعشرين مدرسة. وكان في بعض المدن الرئيسية في الأندلس مدارس كبرى في قرطبة وأشبيلية وغرناطة، وبلغ عدد المدارس في قرطبة وحدها، في خلافة الحكم المستنصر (الثاني) ابن عبدالرحمن الناصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) ثمانين مدرسة، وكان في

---

(١) ناجي معروف: نشأة المدارس المستقلة، ص٥.

غرناطة سبع عشرة مدرسة إضافة للجامعة العلمية الكبرى التي أسسها يوسف أبو الحجاج سابع سلاطين بني نصر.

وكان التعليم بالمجان، بل كانت تقدم للطلاب المكافآت التشجيعية، واتجه إلى المدارس الاسلامية طلاب العلم من مختلف البلاد في الدولة الاسلامية كما اتجه اليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الاسلامي والعالم المسيحي على السواء. وكان يسود الجميع روح المحبة الصادقة والزمالة المخلصة.

وتؤكد الروايات أن من هؤلاء الرواد البابا سلفستر الثاني عشر الذي جاء إلى قرطبة أيام أن كان راهبا ليتلقى العلم فيها، وكان بعد ذلك من علماء البابوات.

ومن بين العلماء الأفاضل الذين قاموا على تربية النشء وعكفوا على تعليمه في العلوم العربية والاسلامية أبوبكر بن معاوية الذى أخذ حلقة لتدريس حديث رسول الله ﷺ، وأبو على القالى العالم البغدادي، وصاحب كتاب «الأمالى» والذى وفد على الأندلس أيام الناصر كان يحاضر في التاريخ العربي والآداب العربية، ثم ابن القوطية أستاذ اللغة والقواعد النحوية.

يقول الأستاذ جونثالت فالنيتيا نقلا عن العلامة دوزى أن المواد التي كانت تدرس في التعليم (الجامعي) العالى هي كما يلي: القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وتفسيره، وشرح الحديث النبوى، وعلم المواريث، والفقه وأصول اللغة، وجميع العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم كعلم التوحيد، وقواعد اللغة العربية، وتاريخ العرب، ثم النظم والنثر والطب والفلسفة، وعلم النجوم والموسيقى.

وكان التلميذ الذي يأنس الأستاذ منه الكفاية، ويلاحظ فيه القدرة على التدريس يعطيه إجازة مكتوبة، وقد تطورت هذه الظاهرة في أيامنا المعاصرة إلى الاجازات الأكاديمية الجامعية[1].

٤- مجالس العلم:

وإلى جانب الكتاتيب والمدارس النظامية،كانت مجالس العلم الخاصة تساهم في نشر العلم والثقافة في المجتمع الاسلامي، وكانت هذه المجالس تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة، وكان يحضر اليها كبار العلماء، وكانوا يعقدون مجالس المناظرة والمساجلة التي كانوا يحضرونها وكانت تتناول القضايا المختلفة ويدور النقاش فيها بحرية تامة.

٥- المكتبات:

اشتهر كل من القاهرة وبغداد ودمشق وقرطبة بمكتباتها العامة التي حوت الآلاف من الكتب والمخطوطات النادرة. وقد ساعد انشاء المكتبات على اطراد الحركة العلمية وتقدمها، وكذلك ساعد الدارسين في بحوثهم وأدى إلى حركة الترجمة الواسعة التي شهدها العصر العباسي الأول، وبخاصة عصر المأمون.

وقد انشئت المكتبات أول الأمر في المساجد، ثم الحقت بها، لكن انشاء المكتبات المستقلة بدأ يظهر في العصر العباسي الاول، واستمر بعد ذلك في بقية العهود الاسلامية، وقد احتوت هذه المكتبات على خزائن كبيرة لحفظ الكتب، كذلك حوت على

---

(١) جودة هلال ومحمد محمود صبح :قرطبة في التاريخ الاسلامي. القاهرة ١٩٦٢، ص٨٨-٨٩.

قاعات مخصصة للمطالعة، اضافة لحجرات خاصة للنسخ والترجمة.

وتعد مكتبة بيت الحكمة، أو خزانة الحكمة التي أسسها هارون الرشيد واكتملت في عهد المأمون،من أشهر مكتبات بغداد، وقد احتوت هذه المكتبات على أعداد كبيرة من الكتب، وكانت تضم غرفا خاصة للترجمة والنسخ، وكان المأمون قد أرسل قيصر الروم وجلب من بلاده ماعنده من كتب نادرة وأمر المترجمين في هذه المكتبة بترجمتها من الإغريقية والسريانية إلى اللغة العربية[١].

ومن مكتبات بغداد الشهيرة المكتبة التي الحقت بالمدرسة النظامية وكانت ذات قاعات واسعة للمطالعة، وهي مزودة بصهاريج تمدها بمياه الشرب، وقد بلغ عدد الكتب التي كانت تحويها هذه المكتبة نحو ٨٠ ألف مجلد. قال ابن الجوزي: «ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوى على ستة آلاف مجلد[٢].

ومن أشهر مكتبات القاهرة خزانة الحكمة التي أنشأها الفاطميون. قال المقريزى عن دار الحكمة «قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبدالله المسبحى وفي يوم السبت هذا- يعني العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة. وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس اليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ماالتمسه، وكذلك من رأى قراءة شيءمما

---

(١) أحمد أمين: ضحى الاسلام جـ٢، ص٦١.
(٢) ابن الجوزى :صيد الخاطر، ص ٣٦٦.

فيها، وجلس فيها القراء وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها. وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التي لم يسمع بمثلها من جراء الرزق السنى لمن رسم بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها مايحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر[١].

ومن أشهر مكتبات بلاد الشام المكتبة التي أنشأها الفاطميون في طرابلس بالشام، كذلك الخزائن النورية التي أنشأها نورالدين محمود زنكى ومكتبة أنطاكية، ومكتبات دمشق وحلب التي كانت ملحقة بمدارسها.

مكتبات الأندلس:

أسس الحكم بن الناصر (ت ٣٦٦هـ) مكتبة فى قصره في قرطبة، وزاد عدد كتبها عن الأربعمائة ألف كتاب، وكان بالأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري، نحو سبعين مكتبة عامة. ويقول الكاتب الأوربي «كوندى» Gonde «ان الأسبان عند استيلائهم على

(١) المقريزى: الخطط جـ١، ص٤٥٩.

قرطبة من يد المسلمين، أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب حوت أكثر من مليون مجلد.

ويقول المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون «وأحرق رئيس الأساقفة الأسباني «شمينيس» مخطوطات العرب وتقدر بثمانين ألف كتاب وظن أنه بفعلته هذه قد محى ذكر العرب من صفحات التاريخ الأسباني نهائيا،ولم يكن يدرك أن ماتركه العرب من الآثار التي تفيض بها مدن أسبانيا بالاضافة إلى آثارهم الفكرية إنما يكفى لتخليد اسمهم إلى الأبد [١].

واضافة للمكتبات العامة، كانت هناك المكتبات الخاصة التي يمتلكها الوزراء والأمراء والعلماء والأعيان من التجار الذين شغفوا بالعلم وبالاطلاع وجمع الكتب لتكون هذه الكتب في متناول أيديهم ومتناول من يطلبها من الدارسين تيسيرا لأمورهم في مواصلة مسيرة البحث العلمي.

ولم يقف الأمر في العناية بالكتب في العصور الاسلامية عند الاهتمام بصناعتها وانتاجها وتيسير الانتفاع بها بل تعدى ذلك إلى تنشئة طلاب العلم على الاهتمام بها وتلقينهم طرق الانتفاع بها. وقد أفرد ابن جماعة (ت عام ٧٣٣ هـ في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» بابا في الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم ومايتعلق بتصحيحها وضبطها وحملها ووضعها وشرائها ورعايتها ونسخها إلى غير ذلك. وقد بدأ ابن جماعة الباب بحث الطالب على

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ٢٨٢.

العناية بتحصيل الكتب سواء بالشراء أم الإجارة أم العارية، وحسن له ألا يشتغل بنسخها إلا للضرورة. وحبذ إعارة الكتب «لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها وعلى المستعير للكتاب أن «لا يطيل مقامه عنده من غير حاجة بل يرده اذا قضى حاجته ولا يحبسه اذا طلبه المالك أو استغنى عنه، ولا يجوز أن يصلحه بغير اذن صاحبه «وكذلك» اذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشا منشورا بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي المكتب المعروف كيلا يسرع تقطيع حبله» وأوصى بتفقد الكتاب عند شرائه أو استعارته.

«اذا استعار كتابا فينبغي أن يتفقده عند ارادة أخذه ورده، واذا اشترى كتابا تعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويصفح أوراقه وأعتبر صحته ومما يغلب على الظن صحته اذا ضاق الزمان عن تفتيشه» ووجه الطالب الى اجتناب الكتابة الدقيقة في النسخ «فإن الخط علامة فأبينه أحسنه» وفضل له استعمال الحبر على المداد لأنه أثبت، وشرح له صنعة قلم الكتابة» قالوا: ولا يكون القلم صلبا جدا فيمنع سرعة الجرى، ولا رخواً فيسرع إليه الحفا. وقال بعضهم: اذا أردت أن يجود خطك فأطل جلفتك وأسمنها وحرف قطتك وأيمنها».

وأوضح للطالب طريقة تصحيح الكتاب ومقابلته على أصله الصحيح أو على الشيخ، وبين له طريقة كتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة ورسم له راموزا لكل حالة، وانتقل بعد ذلك إلى إجازة استعمال الحبر الأحمر لبيان كتابة الأبواب والتراجم

والفصول .وانهى ابن جماعة الباب بضبط تاريخ الكتابة مقيدا بالمجلس.

وهكذا يعطينا ابن جماعة نموذجا لما كانت عليه الحال في توجيه طالب العلم إلى خدمة الكتاب والعناية به، وتلقينه طرائق نسخه والانتفاع به.

الفتح الاسلامي وأثره في الثقافة

توفى رسول الله صلى عليه وسلم ولم يكن الاسلام قد تعدى نفوذه جزيرة العرب اللهم الا مجرد توجيه الدعوة للأمم المجاورة[١]، ثم بدأ الفتح الاسلامي بعد ذلك فأظل الاسلام ممالك ودولا كبيرة دخلها الاسلام بنوره قبل أن يدخلها جند المسلمين. ففي سنة ١٧هـ فتحت الشام وكانت قد تداولتها مدنيات مختلفة، وفي سنة ٢٠هـ فتحت مصر الوراثة لحضارة قدماء المصريين ولحضارة اليونان والرومان، وفي سنة ٢١هـ فتحت العراق ثم توالى الفتح إثر الفتح، ففتحت فارس وغيرها، وامتدت الفتوحات حتى أخضع المسلمون لسلطانهم السند وبخارى وسمرقند كما فتحوا من الناحية الأخرى بلاد المغرب وكل شمال أفريقيا، وفي سنة ٩٣هـ فتحت الأندلس في غرب أوربا، وتوغل المسلمون بعد ذلك في فرنسا حتى نهر اللوار، واستولوا على جنوب ايطاليا وجميع الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسط[٢].

---

(١) أرسل الرسول في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء،فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل امبراطور الروم، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى فارس، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي،وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، وسليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى أمير بلاد اليمامة،وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر ابن ساوى أخى بنى قيس صاحب البحرين،وعمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى حكام عمان (ابن هشام ٤ / ٢٧٩، الطبري ٢ / ٨٤-٨٥).

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الاسلام،ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين القاهرة ١٩٤٧، ص ١٣٥.

ودخل الناس في دين الله أفواجا من مختلف الأجناس والألسنة والألوان، ولم يكونوا يعتنقون الاسلام طواعية فحسب، ولكنهم كانوا يهبون لنشره والدفاع عنه بأموالهم وأنفسهم.

ولا ريب أن الاسلام يحمل بين جنبيه العوامل الأصيلة التي يرجع اليها السبب الرئيسي في نشر رسالته بهذه السرعة وهذا الشمول. هذه السرعة التي تخطت الدهناء والجبال والحزون والسهول والصحارى والمستنقعات،وهذا الشمول الذي لم يفرق بين الأسود والأبيض، والبدوي والمتحضر، ولم يميز بين الشريف والوضيع،والقوى والضعيف. يقول الله تعالى:﴿ **يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ «سورة الحجرات: الآية١٣»، وقد احتوت مبادىء الاسلام ونظم الحكم فيه من عناصر الحق والخير ماتتطلبه البشرية على اختلاف مشاربها وأساليبها في الحياة، ولأن الحضارات التي نشأت في ظله فاحتضنها وصانها، وعناصر الحضارات التي اقتبسها من الحضارات السابقة فاستخدمها ونماها بعد أن طبعها بطابعه، لا بد أن كانت محققة لكل ماتصبو إليه الأمم والشعوب من أساليب القوة والحياة الطيبة الآمنة.

فالمسلمون الأولون الذين حسن اسلامهم وقوى إيمانهم وتطهرت نفوسهم من كل دنس وإثم كانوا يغزون بفضائلهم نقائص أعدائهم، وكان أثر مكارم أخلاقهم أمضى وأقوى أثرا من الحديد والنار.

يقول جوستاف لوبون:«إن القوة لم تكن عاملا في انتشار

القرآن، فقد ترك العرب الفاتحون أهل البلاد التى فتحوها أحرارا في أديانهم فإذا حدث أن اعتنق بعض النصارى الاسلام وأخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدالة الفاتحين ولما لمسوه في الاسلام من سهولة ويسر لم يعرفوهما من قبل، ولم ينتشر الاسلام بالسيف، وانما انتشر بالدعوة وحدها[1].

يقول الكونت دى كاسترى في كتابه « الاسلام خواطر وسوانح » « إن الاسلام لم يكن له دعاة مخصصون للقيام بالدعوة اليه ،تقديم مبادئه كما في المسيحية، ولو أنه كان للاسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع فقد شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد فتح المدن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلى بها الأمم حربا لا هوادة فيها، ولكننا لا نعلم للاسلام مجمعا دينيا يتبع الجيوش فلم يكره أحدا عليه لا بالسيف ولا باللسان ».

وعن انتشار الاسلام بالدعوة في افريقية يتحدث الكاتب النصراني « هوبيرديشان » في كتابه « الديانات في افريقية السوداء » يقول: « إن انتشار دعوة الاسلام بأفريقية لم تقم على القسر وإنما قامت على الاقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون، لا يملكون حولا ولا طولا ولا قوة إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرا ماانتشر الاسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم، كان اذا مااعتنقته الأستقراطية، وهي هدف الدعاة الأول، تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ٣٢٥ . .

انتشار الاسلام أمر آخر وهو أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب اليه يسيرة وأيسر، اذ لا يطلب من الشخص لاعلان اسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين، وقد حبب الاسلام الى الافريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلف،مثل الثواب الواسع والمسبحة،والكتابة العربية، والوقار الديني وشعائر الصلاة، ممايضفى على المسلم مكانة مرموقة، وجاذبية ساحرة، فالذى يدخل الاسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية » .

إن الموقف الأساسي للاسلام من أهل الأديان الأخرى مقرر واضح في آية صريحة من القرآن الكريم تقول :﴿ **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ « سورة آل عمران : الآية ٦٤ » .

وقد اتخذ الرسول هذه الآية شعارا لموقفه من أهل الكتاب، فضمنها كتابه إلى النجاشي عظيم الحبشة، وإلى هرقل عظيم الروم، وغيرهما من رؤساء الأمم المجاورة .

هذه هي الدعوة التي أمر رسول الاسلام أن يوجهها إلى أهل الأديان الأخرى، فإن هم لم يستمعوا اليها فلهم شأنهم وله شأنه، ولهم دينهم وله دينه، والذى يتتبع كتب الرسول إلى رؤساء الأمم من حوله يلمس فيها طابع الدعوة بالحسنى والنصح في رفق، فلما أخذت العلاقات السياسية تتشابك وتتعقد بين الدولة الاسلامية

والجماعات والدول المجاورة لها، والتي انتظمتها رايتها، أدخل الاسلام في تنظيم هذه العلاقات عنصرا جديدا هو طلب (الجزية) من الجماعة أو الأمة المجاورة أو المفتوحة، اذا لم يستجيبوا للاسلام وأرادوا البقاء على دينهم[1].

وعلى هذا سار خلفاء المسلمين في معاملتهم للأمم المفتوحة :فمن آثر من الرعايا أن يبقى على دينه وفروا له الحرية والأمن في نفسه وماله وأماكن عبادته، مادام يؤدى الضريبة التي فرضتها الدولة عليه لقاء هذا السلام الذى تهيئه له، والرعاية التي ترعى بها مصالحه. ومن الأمثلة الواضحة في هذا الكتاب الذى كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل «ايلياء» بعد فتح بيت المقدس في السنة الخامسة عشرة من الهجرة وفيه يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ماأعطى به عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن... » إلى أن يقول: «وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية »[2].

وكذلك فعل العرب المسلمون حين فتحوا مصر، فقد حسموا

---

(١) محمد حميد الله الحيدر آيادى: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة القاهرة ١٩٤١، ص٣٠، ٥٧، ٥٨، ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) الطبرى: جـ٣، ص ٦٠٩.

النزاع الذى كان قائما بين مسيحى مصر ومسيحى بيزنطة على بعض التصورات الدينية،وهيأوا لكل فريق الحرية أن يدين بما شاء، ووكلوا إلى البطريق القبطى سياسة الطائفة وتدبير أمورها واصلاح ماهدم من كنائسها في أيام المقوقس(١).

ومما قرره الباحثون أن أكبر فرق بين الأمبراطورية الاسلامية وبين أوربا التي كانت كلها على النصرانية في العصور الوسطى وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى في ديار الاسلام، وأن الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعا من التسامح،كان مظهره نشوء علم مقارنة الأديان، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها، والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم(٢).

ولم يكن في التشريع الاسلامي مايغلق دون غير المسلمين أى باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الربح الوافر، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء، ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لغيرالمسلمين، بل كان بعض الخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم، أما في التقاضي فقد خلت الدول الاسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم والتي كان الرؤساء الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة، وكان أهل الذمة بحكم مانالوه من تسامح المسلمين ودخولهم في ذمتهم وحمايتهم يدفعون الجزية كل واحد

---

(١) ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة ٥ / ٦ / ٢٤.

(٢) آدم متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد علي أبوريدة- القاهرة ١٩٤٠،جـ١، ص٥٥، ٩٦.

بحسب قدرته، ويشبه بعض المؤلفين الغربيين هذه الجزية بضريبة الدفاع الوطني اذ لم يكن يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح،وكان يعفى منها ذوو العاهات والمترهبون وأهل الصوامع الا اذا كان لهم يسار، ولم يكن المسلمون بدعا في هذا، فقد كان الروم يأخذون من اليهودي والمجوسي دينارا في السنة، وكذلك فرض النصارى على المسلمين نوعا من الجزية لما احتلوا بعض بلادهم(١).

فاذا انتقلنا من شرق البلاد الاسلامية ووسطها إلى غربها وجدنا منهج الحكم الاسلامي واحدا لا يتغير ووجدنا التسامح الديني أساسا من أسس ذلك الحكم. يقول الكونت هنرى دكاسترى في كتاب « الاسلام » : « إن الحبرميشون قال: ولقد أيقنت من تتبعي للتاريخ، أنَّ معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة،وتدل على حسن مسايرة، ولطف ومجاملة، وهو احساس لم يشاهد في غيرالمسلمين، اذ ذاك،خصوصا أن الشفقة، والرحمة، والحنان كانت امارات ضعف عند الأوربيين وهذه حقيقة لا أدرى وجها للطعن فيها » .

ويقول ستانلى لين بول :(ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم

---

(١) آدم ميتز الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد على ابوريده، القاهرة ١٩٤٠، جـ١، ص٧٤، ٧٥. ومما يؤيد أن الجزية فرضت على أهل الذمة مقابل حماية أرواحهم حيث إن ديانتهم كانت تحول دون استخدامهم في جيوش المسلمين، مايروى عن أهل الحيرة أنهم قالوا في صراحة أنهم دفعوا الجزية مقابل « أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم»،كذلك سجل خالد ابن الوليد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة مانصه: « فإن منعناكم فلنا الجزية والا فلا » وكانت أية جماعة مسيحية تقاتل إلى جانب المسلمين تعفى من الجزية،مثلما حدث مع الجراجمة بجوار أنطاكية (البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٥٩. ليدن ١٨٦٦).

أفادوا من تغير الحكم، فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف، وأصبح سكان المدن لا يكلفون الا الجزية– والخراج إن كانت لهم أرض تزرع– بعد أن كانوا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تنفق على الدولة وقصرت الجزية على المخالفين في الدين، أما ضريبة الأرض فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى،واليهود، والمسلمين جميعا، ولم يدع التسامح الديني للأسبانيين سببا للشكوى فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاؤون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود. وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الأفرنج أو القوط [١].

لقد كان العرب يمتزجون بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة فأدى ذلك إلى اختلاط العناصر المختلفة وتلاقي الأفكار وتبادل الثقافات. وقد دفع الاسلام أبناءه دفعا قويا إلى نشر الثقافة الاسلامية والتعرف على الثقافات الأخرى ودراستها ومقارنتها بما عندهم والاستفادة بكل مافيها من خير؛ والتقدم الحضارى ميراث للانسانية كلها، لا يمكن احتكاره لشعب دون شعب، وهو اذ ينتقل عبر الحدود فإنما ذلك بأخذ ذاتية البيئة التي حل فيها.

يقول جوستاف لوبون: «ومن العوامل الفعالة في أصول المدنية

---

(١) ستانلى لين بول: قصة العرب في أسبانيا ترجمة على الجارم. القاهرة ١٩٤٤، ص ١٣٦.

التي وضع العرب أساسها . شدة ماكانوا عليه من الذكاء، فإنهم ماكادوا يخرجون من صحارى بلادهم، حتى اتصلوا بالمدنية اليونانية واللاتينية فاستغربوا شأنها،ثم مالبثوا أن راضوها على أسلوبهم وطريقتهم .

تحمس العرب لدراسة العلم الجديد الذى خرجوا اليه، بنفس الحماسة التي اندفعوا بها فاتحين ولم تعقهم اثقال عادات وأوضاع قديمة، فإن الحرية في البحث كانت أحد العوامل التي أسرعت بانطلاقهم في طريق الرقي .ولم يمض زمن قصير حتى طبعوا الهندسة والفنون والعلوم بطابعهم الشخصي الذى تعرف به آثارهم لأول وهلة[1] .

شجع الخلفاء العلماء والباحثين وقربوهم منهم وجعلوهم محل ثقتهم وتقديرهم وكلفوا لهم حرية مطلقة في البحث ورصدوا لهم المكافآت المجزية التي تصرفهم عن التفكير في غير ماهم بصدده من بحث وفحص ودراسة .

وحرص المسلمون على أن تكون جميع تصرفاتهم مسايرة لأحكام الشرع فكان لزاما عليهم أن يدرسوا كل ماحولهم وأن يتفهموا كل مايدور في أوطانهم من أمور وأن يتعرفوا على كل مايقفون عليه من نظريات ليروا موقف الاسلام منها وليتعلموها ويستفيدوا منها وينشروها مادامت نافعة مفيدة كما تقضى بذلك تعاليم دينهم .

وكان من أثر ذلك أن تكونت للعرب ثقافات أفادت العالم

---

(١) جوستاف لوبون :حضارة العرب، ص ٣٥٨ .

أجمع، وتهافت الناس على التعرف عليها والاستفادة منها، كما كان لذلك أثر في انتشار اللغة العربية واقبال الناس على تعلمها حتى تمكنت دولة العرب في الأندلس من ايجاد فكر جديد صالح مهذب في أوربا هو فكر الثقافة العالمية التي نقلها المسلمون إلى الغرب، وأصبح المثل الأعلى للأروبى أن يتشبه بالعرب المسلمين في أنماط التفكير وأساليب المعيشة بل وفي لغة اللسان حتى إنه لم يكن مثقفا ولا متحضرا في رأيهم من لا يحسن اللغة العربية ومن لا يدرس الثقافة الاسلامية. وقد نقل المؤرخ «دوزى» في كتابه عن «الاسلام في الأندلس» رسالة لكاتب أسباني في عصرها الاسلامي ينعى فيها اللغة اللاتينية واللغة الاغريقية نتيجة اقبال قومه على اللغة العربية والثقافات الاسلامية وهجرهم لما عداها، ومنها قوله: «إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وانصرفوا إلى العربية، فدرسوا التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، وأنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان.

ويقول جورج سارطون في كتابه «العلوم والعمران في العصور الوسطى: «أصبحت اللغة العربية في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن، وحملت لواء التقدم الصحيح وحافظت على تفوقها واحتلالها مركز الصدارة بين جميع الألسن الأخرى إلى آخر القرن الحادى عشرعلى أقل تقدير. وكان كل من يريد أن يطلع في القرن الحادى عشرعلى أفكار عصره يضطر إلى أن يتعلم اللغة العربية.

أصبحت اللغة العربية لغة عالمية للعلم والمعرفة وذلك قبل عدة قرون من محاولة الباحثين ايجاد لغة عالمية مشتركة للعلم، وحتى لا تهتز المفاهيم العلمية بسبب تعدد اللغات الحديثة [١].

يقول العالم الانجليزي روجربيكون (١٢١٥- ١٢٩٢م) : إن الفلسفة مستمدة من العربية، وعلى هذا لا يستطيع الانسان الأوربي أن يفهم فلسفة العلم الا اذا عرف اللغة التي نقلت عنها « بل يقال إن بعض تلاميذ روجر بيكون نفسه كانوا أحيانا يتهكمون عليه اذا أخطأ في ترجمة النصوص العربية اللاتينية، مما يشير الي أنهم كانوا يعرفون العربية ويطالعون النص العربي ويقارنون بينه وبين مايقوله أستاذهم. وفي ذلك يقول بريفولت : « إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في جامعة أكسفورد على أيدي أساتذة تتلمذوا بدورهم على أيدى أساتذة من العرب الأندلس. وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم اللغة العربية وعلم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة[٢].

وهكذا استطاعت اللغة العربية أن تنتصر في جميع البلاد التي فتحها العرب من المحيط إلى الخليج- باستثناء القليل- فحلت محل اليونانية واللاتينية والقبطية والآرامية والسريانية والبربرية وغيرها. حتى

---

(١) من ذلك مافكر فيه ليبنتز في القرن الثامن عشر من جمع « ألف باء » الفكر الانساني وحصر الأفكار البسيطة والمركبة، ثم وضع رمزاً لكل فكرة لتصبح هذه الرموز بمثابة لغة مشتركة. وفي القرن التاسع عشر شرع طبيب روسي في وضع لغة الاسبرنتو لتكون لغة عالمية، وفي أوائل القرن العشرين حاول الفيلسوف والرياضى الفرنسي « كرتورا » تهذيب الاسبرنتو وتحويلها إلى « الايدو » لتكون الأخيرة لغة دولية لها مقوماتها ونحوها، وقد أقرت الجمعية الفلسفية الفرنسية، هذا الاتجاه فأشارت إلى « الايدو » في معجمها الفلسفي الذى أخرجه لالاند.

(٢) Priffault: Making of Humanity P.P. 201-202

أن الشعوب التي احتفظت بلغتها- رغم خضوعها لحكم العرب واعتناقها الاسلام- مثل الفرس والترك- اتخذت اللغة العربية أداة للعلم والأدب، مثلما حدث في بلاد فارس.

ولم يكن عسيرا على لغة كاللغة العربية التى عرفت بالأصالة والخصب والغنى أن تصبح أداة لحضارة عظيمة، فقامت بمهمتها على خير وجه في التعبير عن الأفكار ونقلها، واستطاعت أن تكون أداة طيبة لكل مانقل من علوم الفرس والهنود واليونان، فلم يكد ينصرم القرن الثاني الهجري حتى كانت خلاصة هذه الثقافات قد دونت كلها باللغة العربية،والعرب الذين كانوا لا يعلمون شيئا من مصطلحات الحساب والهندسة والطب، ولا شيئامن منطق أرسطو وفلسفته، غدوا في قليل من الزمن يعبرون بالعربية عن أدق نظريات اقليدس وفلسفة أرسطو وطب جالينوس وفلك بطليموس[1]

(١) أحمد أمين: ضحى الاسلام جـ١، ص ٢٠٥.

عناية علماء المسلمين بنشر الثقافة العالمية عن طريق الترجمة

اهتم المسلمون كل الاهتمام بالعلوم والمعارف في البلاد المفتوحة، وعنوا بالترجمة عناية فائقة، وأغدقوا على المشتغلين بها من الأموال ماجعلهم يؤدون الترجمة بعناية ودقة.

كان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أول من أمر بترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية، إضافة إلى تعريب مانقل من اليونانية إلى القبطية ويعتبر بحق الرائد الأول في نقل العلوم إلى اللغة العربية وبذلك وفر العلم لمن أراد ارتشافه من العرب والمسلمين الذين يحسنون اللغة العربية[١].

كانت الترجمة بادىء بدء ركيكة مشوشة، بل هى أقرب إلى الترجمة الحرفية منها إلى الترجمة الدقيقة ذلك لضعف المترجم في إحدى اللغتين اليونانية والسريانية من ناحية والعربية من ناحية ثانية ولم تستقم الترجمة الا بعد النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، أي بعد أن تولاها حنين بن أسحق. فقد درس حنين اللغة العربية على تلامذة الخليل بن أحمد الفراهيدى وفي مدرسته في البصرة، فتضلع في اللغة العربية وأجادها ثم سافر إلى بلاد الروم (اليونان) وأقام فيها مدة مكنته من اللغة اليونانية وهكذا تمكن من اللغتين، اللغة العربية التي يترجم اليها واللغة اليونانية التي ينقل عنها، لذلك جاءت ترجمته مضبوطة مفهومة وبلغة عربية رصينة فصيحة واذا ماتذكرنا أنه كان يجيد السريانية بحكم تكوينه فيكون بذلك قد استوعب كل ماينقل

(١) فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء ص١٧ .

إلى العربية من العلم اليوناني الذى بقى في لغته أو ماترجم منه إلى اللغة السريانية .وحظى حنين بقسط وافر من رعاية الخلفاء العباسيين ولا سيما المأمون الذى كان يكافئه على ترجمته بالذهب كفة بكفة[1].

شهد القرن الثاني الهجري حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة أولها الثقافة العربية الأصيلة التي تتمثل في الشعر والقرآن والحديث وفقههما وعلوم اللغة العربية، وقد أحرزت هذه الفروع جميعها تقدما كبيرا في هذا القرن، بل إن بعضها ابدع فيه ابداعاً جديدا كالنحو والعروض مثلا،كما جمع التراث الشعري القديم لأول مرة ودون في ذلك العصر.

وبدأ العرب بدراسة التراث اليوناني في مطلع هذا القرن، واستمرت الدراسة والترجمة أكثر من قرن، فاستوعب علماء العرب، ماجاءهم من التراث اليوناني علما وفلسفة واجتماعا، وأضافوا إلى ماجاءهم من العلم والمعرفة وبرز منهم عدد كبير في مختلف شؤون المعرفة كالفلسفة والفلك والطبيعة (الفيزياء) والرياضيات والهندسة والكيمياء، وقدم العرب تراثا جديدا وغزيرا فقد حافظوا على التراث اليوناني وكان هذا بعض فضلهم، غير أن فضلهم الكبير يتجلى فيما طوروا من أساليب البحث العلمي مثل اعتمادهم الطرق التجريبية في الوصول إلى الحقائق العلمية. هذه الطرق التي أغفلها اليونان واستبدلوا بها الاستنباط الفكري ولعل جابر بن حيان أول رائد في هذا الباب وحذا حذوه كل من الكندى وابن الهيثم وغيرهما.

---

(١) الاعلام: جـ٢ ص٢٨٧– ٢٨٨.

وقام علماء من الفرس بدور مهم في الترجمة، مثل يعقوب بن طارق،ومحمد بن ابراهيم الفزارى الذى كان أبوه فلكيا مشهورا وقد كتب منظومة في الفلك، ويقال إنه أول من صنع الاسطرلاب من المسلمين،ومن المترجمين من البهلوية إلى العربية عبدالله بن المقفع الذى ترجم بعض الكتب في المنطق والطب، ولكنه اشتهر على الأخص بترجمة كتاب خد اينامة أى سير ملوك العجم كما سماه، وكذلك كتاب كليلة ودمنة، وقام ابنه محمد بدور كبير في نقل الكتب الفلسفية اليونانية.

ولكن لكتاب كليلة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي وغيره من الآداب، وتأثر به الكثيرون من الكتاب وحذوا حذوه في التأليف على منواله، وقد أدخل في العربية القصص على ألسنة الحيوانات ووضع الأمثال والحكم والعظة على ألسنتها.

وكان شيوع الثقافة الفارسية في عالمنا الاسلامي مرجعه أيضا إلى نشأة منصب الوزارة وإسناده في أكثر الأحوال إلى الفرس. وكان من مميزات الوزير أنه صاحب قلم عالم مطلع وكتاب بليغ يستعين بكتاب تميزهم كفاية علمية وسعة اطلاع والمام بشتى العلوم والفنون، وساعد كل هذا على أن يترجم المسلمون إلى العربية تراث الحضارة الفارسية. وكان البرامكة بنفوذهم الواسع في الدولة العباسية من أهم العوامل في نشر الثقافة الفارسية، وإن كان من الحق أن يقال أنهم شجعوا نشر جميع الثقافات. يروى ابن النديم عند الكلام على كتاب المجسطى في الفلك أن أول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك، ففسره له جماعة فلم يتقنوه، ولم

يرضـه ذلك فندب لتفسيره أبا حسان وسلمان- صاحبا بيت الحكمة- فأتقناه واجتهد في تصحيحه. فهؤلاء البرامكة وإن كانوا قد عنوا بالثقافة الفارسية فقد اهتموا معها بالثقافة اليونانية والهندية والعربية.

ومن أثر الثقافة الفارسية في اللغة العربية ألفاظ لا يعرفها العرب أصلا لأنها تعبر عن معان جديدة أخذوها عن الفرس. ويبدو هذا في أدوات الزينة وأنواع المأكل والملبس وآلات الغناء ونظام الدواوين وغيرها، كما تسربت إلى العربية ألفاظ فارسية عن طريق الاختلاط أو التجارة ولكنها قليلة اذا قيست بالألفاظ التي ترجمها العرب إلى لغتهم بسبب احتياجهم اليها.

كان المسلمون يقولون إن الأمم ذات الصفات الممتازة أربع: هي الفرس والهند والروم والصين. ويقول الجاحظ: إن الهنود اشتهروا بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرائط. والصناعات الكثيرة العجيبة. وردد هذا غيره من المؤرخين من أمثال القفطى والأصفهاني.

واتصل المسلمون بالهند وأخذوا عنها الرياضيات- قبل أن يتصلوا باليونان اتصالا وثيقا- وأمر المنصور بترجمة كتاب هندى في الفلك إلى العربية واستخراج كتاب منه يتخذه العرب أصلا في حساب حركات الكواكب، وتولى ذلك الفزارى، وترجم العرب كتابا ثانيا اسمه الأركند وثالثا اسمه الأزجبهره وكان هذا دليلا على شدة تأثير كتب الهند في أوائل نمو الفلك عند العرب. وقد أفاد العرب من الهنود في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية.

وأخذ العرب عن الهنود بعض الاصطلاحات الرياضية، كلفظة الجيب في حساب المثلثات، واقتبسوا كثيرا من نظريات الهنود في الحساب والهندسة.

وكان للهنود أدب وشعر، وقد نظموا قواعد للرياضة والفلك، لأن ذلك يخرجهم عن ضبط القواعد ودقة التعبير، وللشعر عندهم بحور وأوزان، ويقول البيروني: إن من الممكن أن يكون الخليل بن أحمد قد قلد الهنود فى وضع موازين الأشعار.

وأولع العرب بالقصص الهندية. وقد أشرنا إلى كتاب كليلة ودمنة الذى ترجم إلى الفارسية ومنها إلى العربية، وقصة السندباد الهندية. ويذكر ابن النديم في الفهرست أسماء كتب هندية كثيرة ترجم منها إلى العربية.

أسس المأمون الخليفة العباسي بيت الحكمة في بغداد الذي زوده بمكتبة ومرصد فلكي، كما أمر فلكييه بعمل الزيجات لحركات الكواكب، وبقياس درجتين أرضيتين لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذى قبل كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة، ومن الراجح جدا أن يكون محمد بن موسى الخوارزمي العالم المشهور قد اشترك في قياس الدرجتين المذكورتين، كما شارك في رسم خريطة العالم، واشترك في قياس المساحات الأرضية والفلكية خالد ابن عبدالملك المروزى، وسند بن علي، وعلي بن عيسى الاسطرلابى، ويحيى بن أبي منصور- الذى كان قائما على المرصد الذى أسسه المأمون- وغيرهم. وقد قامت هذه الجماعة من العلماء بعملها في الشماسية ببغداد، وجبل قاسيون بدمشق وذلك في

سنوات ١٥ و١٦ و٢١٧هـ.

ومن الذين قاموا بجد في الترجمة أيام المأمون يحيى بن ماسوية الذى كان يشرف على بيت الحكمة في بغداد، وكان يؤلف بالسريانية والعربية، كما كان متمكنا من اليونانية، يقول «أوليرى» ان كتابه الطبي عن الحميات اشتهر زمنا طويلا، وترجم فيما بعد إلى اللاتينية والعبرية[١].

لقد ازدهرت الحركة العلمية ترجمة وتأليفا أيام المأمون، وفي عهده استهل أبويوسف يعقوب الكندى فيلسوف العرب نشاطه الفكري. ويقول «بروكلمان» عنه إنه لم يقتصر على تعريف مواطنيه بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة والاقتباس فحسب، بل عدا ذلك الى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من الدراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة.

ولم يكن نشاط المأمون العلمي مقتصرا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة، بل كان يسعى إلى احضار العلماء الأجانب للاستفادة بعلمهم وخبرتهم[٢].

وكان لتمسك العرب بلغتهم في عهد العباسيين أن ظهر في القرن الثالث والرابع والخامس من الهجرة كُتابا تركوا لنا ذخيرة في العلوم والآداب والفنون تشهد بسمو اللغة العربية، وأنها اتسعت لجميع الوان الحضارة ويرجع الفضل في ذلك إلى أن العربية تحوى كثيرا من المترادفات والألفاظ المعبرة عن خواطر النفس البشرية، ولما

---

(١) ديلاسى أوليرى: الفكر العربى ومكانه في التاريخ ترجمة د. تمام حسان ص ١٢٧.

(٢) محمد مصطفى هداره: المأمون الخليفة العالم ص١١٦.

احتاج العرب إلى نقل العلوم الطبيعية والرياضية، عربوا المصطلحات وأدمجوها في قاموس اللغة مما يثبت بالبرهان القاطع على أنها لغة حية ولغة حضارة(١).

والاسلام له ثقافته الخاصة به ونظرياته العلمية التي أشار إليها القرآن وجاء بها أو وجه النظر إليها.

والاعجاز العلمي في القرآن ليس بالأمر الخفي، فالتقدم العلمي يبين لنا الحقائق العلمية التي أشار اليها القرآن. يقول الله تعالى: ﴿ **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ «سورة ص، الآية ٢٩».

وقد أتى من الناحية التشرعية بقواعد حضارة تشريعية عريقة أصيلة مرنة لتصلح للتطبيق في كل بيئة وعصر، وأن أحدث النظريات القانونية والاقتصادية والاجتماعية في العالم يوجد لها أصول في التشريع الاسلامي.

يبلغ عدد الآيات العلمية في القرآن مايقرب من السبعمائة والخمسين آية تشتمل على مختلف العلوم، ويمكن القول بأنه ما من علم من العلوم الا وقد أشار اليه القرآن. وقال فيه مايحقق له الاعجاز ويعلو به فوق طاقات البشر(٢).

قال الله تعالى: ﴿ **فلينظر الانسان مم خلق. خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ «سورة الطارق: الآيات ٥-٨».

الصلب: هو منطقة العمود الفقري، والترائب: هي عظام الصدر.

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني: القومية العربية، ص٤٧.

(٢) انظر الاكليل في استنباط التنزيل للإمام السيوطي - مصححه.

وقد بينت الدراسات الحديثة أن نواة الجهاز التناسلي والجهاز البولى في الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقرى بين الخلايا المكونة لعظام الصدر—وتبقى الكلى في مكانها وتنزل الخصية الى مكانها الطبيعي في الصفن عند الولادة، وعلى الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل فان الشريان الذى يغذيها بالدم طول حياتها، يتفرع من الأورطة بحذاء الشريان الكلوى، كما أن العصب الذى ينقل الاحساس اليها ويساعدها على انتاج الحيوانات المنوية ومايصاحب ذلك من سوائل متفرع من العصب الصدري العاشر الذى يغادر النخاع الشوكي من الضلعين العاشر والحادى عشر.

واضح من ذلك أن الأعضاء التناسلية ومايغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع في الجسم بين الصلب والترائب (العمود الفقرى والقفص الصدري[1]).

ويقول جل شأنه: ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث** ﴾ «سورة الزمر: الآية ٦» يقرر علم الأجنة فى العصر الحديث أن الجنين بعد نموه يكون محاطا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة.

يقول الله تعالى: ﴿ **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون. وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آيتها**

---

(١) المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية: المنتخب في تفسير القرآن الكريم. القاهرة ١٣٨٧هـ، ص٨٩٨.

معرضـون .وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ « سورة الأنبياء : الآيات ٣٠- ٣٣ » .

هذه الآيات البينات تتصل بمولد الكون وتمدده واتساعه المستمر، وبكيفية خلق السموات ،الأرض وأنها كانت جميعا في يوم من أيامه سبحانه وتعالى أصلا واحد كالدخان (السديم) في حالة الرتق والاتصال ثم أوحى اليها سبحانه وتعالى، في يوم من أيامه بالفتق والانفصال، فكان الفتق ثم الرتق يومين من أيامه،مر بهما كونه، سماؤه وأرضه، على ماشاء وقدر .

وقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية، وهي وحدة البناء في كل كائن حي نباتا كان أم حيوانا . وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الأحياء- فهو اما وسط أو عامل مساعد أو داخل في التفاعل أو ناتج عنه . وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظائفه التي بدونها لا تتوفر له مظاهر الحياة ومقوماتها .

وقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ « سورة الحديد : الآية ٢٥ » وليس أدل على ذلك من امتياز الحديد وسبائكه المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مقاومة الحرارة والشد والصدأ والبلى، ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها وأساسا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة ودعامة للحضارات .

وللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد

في عملية تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية في عمليات التمثيل الضوئي التي ينشأ عنها تنفس النباتات وتكوين البروتوبلازم الحى، وعن طريقه يدخل الحديد جسم الانسان والحيوان .ويوجد الحديد في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد يجب أن يزود بها من مصادره المختلفة فاذا نقصت تعرض الانسان لعدة أمراض أهمها فقر الدم[١].

وانظر غير ذلك من الآيات النفسية والآيات الكونية الكثير التي حوت علوم الطبيعة والفلك والجيولوجيا وعلوم النبات والحيوان وعلم الطب والوراثة والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وما الى ذلك مما يشعر الباحث المطلع أن القرآن سبق العلم في كافة اتجاهاته، وسيظل كذلك مابقيت الحياة، يقول الله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ سورة فصلت: الآية ٥٣».

وقد صدرت ترجمات لتفسير القرآن من زمن بعيد إلى لغات مختلفة وخاصة لغات البلاد المتحضرة، وتعرف علماء هذه البلاد عن طريق هذه الترجمات على مافي القرآن من علوم ومعارف ونظريات دقيقة، ولعل ذلك كان مرشدا لهم في بعض بحوثهم وموجها إلي التطلع والنظر في بعض النواحي للتعرف على حقيقتها[٢].

---

(١) المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية: المنتخب في تفسير القرآن الكريم. القاهرة ١٣٨٧هـ، ص٨٠٨.

(٢) طبع القس الجزويتى «ماراتشى Maracci ترجمة للقرآن عام ١٦٩٨م وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية، كما قام المستشرق العلامة مرجرلين Mergerlin عام ١٧٧٢م بترجمة القرآن وقد عكف الشاعر الألماني «جوته» على تلاوة القرآن في هذه الترجمات ويظهر في شعر جوته الأخير الذي أسماه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» تأثره بالقرآن في روحه وعباراته (عبدالرحمن صدقى: الشرق والاسلام في أدب جوته. ص ١٤–١٨).

اهتم المسلمون في عصورهم الزاهية بالعلم والثقافة، ولم ينسهم النصر هذه الناحية، بل حفظوا للعالم عن طريق ترجمة الثقافات الأجنبية إلى العربية الكثير من هذه الثقافات التي كان مصيرها الضياع لولا هذه التراجم العربية، والتي لم يعرفها العالم الحديث الا عن طريق الكتب العربية، وذلك مثل الكتب الخاصة بالتشريح وكتب القوى المحركة والرياضيات والأجسام الطافية لأرشميدس، والبصريات لبطليموس، ولو لا اخلاص المسلمين وحرصهم على الثقافة ونشرها بتحريض من دينهم لظلت الثقافات القديمة دفينة ميتة،كما برع المسلمون في كثير من المجالات وكانت لهم فيها ثقافاتهم الخاصة التي دفعهم اليها ماجاء في كتابهم الكريم من الاشارة اليها والتوجيه إلى النظر فيها ،البحث بشأنها مثل علم الفلك وعلم الكيمياء وعلم الطب والتشريح والجراحة والتداوي، وماتبع ذلك من ايجادهم لعلم الجبر والأعداد الحسابية وغير ذلك من اختراع الساعات ونحوهامن الآلات مما تشير إلى أثرهم فيه بعد أن بينا أثرهم في الحفاظ على الثقافات الأخرى عن طريق ترجمتها والعناية بها.

الفصل الثاني

– الثقافات الإسلامية وأثرها فى الحضارة :

١– فى الأدب .

٢– فى الفلسفة .

٣– فى الطب .

٤– فى الصيدلة .

٥– فى الكيمياء .

٦– فى الطبيعيات .

٧– فى الفلك .

٨– فى الرياضيات .

٩– فى علم النبات .

١٠– فى علم الحيوان .

١١– فى علوم البحار .

١٢– فى الجغرافيا .

١٣– فى علم الاجتماع .

١٤– فى الاختراعات .

١٥– فى الفنون والمعارف الصناعية .

الثقافة الإسلامية وأثرها فى الحضارة

كانت أوربا تتلقى آثار الثقافة العربية الإسلامية بوسائل وطرق كثيرة ومن أهمها وأعظمها أثرا:

١- طريق الأندلس، حيث أقام العرب هناك جامعات زاهرة قصدها طلاب العلم من أوربا،ونشر هؤلاء الطلاب في بلادهم ماتعلموه من العرب، كما انتفع الأوربيون بدور الكتب الكثيرة التي كانت منتشرة في أسبانيا، مما ساعد على احياء العلوم في أوربا فيما بعد.

٢- طريق صقلية، حيث ظل المسلمون في هذه البلاد زهاء ١٣٠ سنة، فأصبحت المركز الثاني لنشر الثقافة الاسلامية في أوربا.

٣- طريق الشرق، فقد كانت الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م) والحج إلى بيت المقدس مدعاة لاختلاط الأوربيين بالعرب فنقلوا عنهم الكثير من علومهم ومعارفهم وفنونهم وصناعاتهم،كما حصلوا على كثير من الكتب العربية، فساعد ذلك على ظهور روح البحث، ودراسة علوم الأقدمين وآدابهم وفنونهم.

وقد أكد علماء الغرب المنصفون أن الأوربيين تناولوا مشعل العلم من أيدى المسلمين حين اتصلوا بهم واطلعوا على حضارتهم، فاستضاءوا بعد ظلمة، وبلغوا به بعد ذلك مابلغوه من هذا التقدم العلمى العظيم الذى يعيشون فيه اليوم، ولو لا هذا الاطلاع وهذا الاحتكاك لظلت أوربا، ربما لقرون عديدة أخرى تعيش في الظلام والجهالة التي رانت عليها في العصور الوسطى. وقد أجمل المؤرخ

الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب[1] » تأثير حضارة الاسلام في الغرب وأرجع فضل حضارة أوربا الغربية اليها وقال« إن تأثير هذه الحضارة بتعاليمها العلمية والأدبية والأخلاقية عظيم » ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب في الغرب الا اذا تصور حالة أوربا في الزمن الذى دخلت فيه الحضارة. وأضاف لوبون: بأن عهد الجهالة قد طال في أوربا العصور الوسطى وأن بعض العقول المستنيرة فيها لما شعرت بالحاجة إلى نفض الجهالة عنها، طرقت أبواب العرب يستهدونهم مايحتاجون اليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد.

ويقرر لوبون أن العلم دخل أوربا بواسطة الأندلس وصقلية وايطاليا. وأنه في سنة ١١٢٠م أنشئت مدرسة للترجمة في طليلة بالأندلس بعناية « ريمولة » رئيس الأساقفة، وأن هذه المدرسة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات المسلمين، ولم يقتصر هذا النقل على كتب الرازى وابن سينا وابن رشد فحسب بل نقلت اليها كتب اليونان التي كان العرب قد نقلوها إلى لسانهم،ويضيف لوبون أن عدد ماترجم من كتب العرب إلى اللاتينية يزيد على ثلثمائة كتاب ويؤكد لوبون فضل العرب على الغرب في حفظ تراث اليونان القديم بقوله: « فإلى العرب، وإلى العرب وحدهم، لا إلي رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية،يرجع الفضل في معرفة علوم الأقدمين، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هذا الكنز الثمين. وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٦، ٥٦٨.

قرون، موردا علميا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلا، وأخلاقا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ماأنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفوقهم قوم في الابداع الفني.

وأكد لوبون أثر الاسلام وأثر حضارته في كل بلد استظلت برايته قائلا: كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي فتحوها عظيما جدا في الحضارة، ولعل فرنسا كانت أقل حظا في ذلك، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذى أظلها بأسرع مايمكن، ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أي ازدهار. وأشاد لوبون بفضل العرب في نشرالعلوم وفتح الجامعات في البلاد التي استظلت برايتهم فيقول: ولم يقتصر العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها، كذلك بما أقاموا من الجامعات وماألفوا من الكتب،فكان لهم الأثر البالغ في أوربا من هذه الناحية، ولقد كان العرب أساتذة للأمم المسيحية عدة قرون، واننا لم نطلع على علوم القدماء والرومان الا بفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب(١).

ويقول الفيلسوف الفرنسي «ارينيه جينو» الذى أسلم وتسمى عبدالواحد يحيى: «والأثر الواضح الذى يثبت لنا انتقال المؤثرات الثقافية من المسلمين إلى أوربا هو تلك الكلمات العربية الأصل التي تستعمل لنقل الأفكار واظهار ماتكنه النفوس فإن من السهل علينا أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الاسلامية نفسها، وفي الحق أن تأثير الحضارة الاسلامية قد تناول إلى درجة بعيدة وبشكل محسوس

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٢٦، ٦٦، ٥٦٩.

كل العلوم والفنون والفلسفة وغير ذلك، وقد كانت أسبانيا مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة. فالكيمياء احتفظت دائما باسمها العربي وعلم الفلك أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظة في كل اللغات الأوربية بأصلها العربي، كما أن كثيرا من النجوم مايزال علماء الفلك في كل الأمم يطلقون عليها أسماء عربية. ومن السهل جدا أن نوضح أن كثيرا من المعارف الجغرافية عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرا من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة. وأننا لنجد أثر الثقافة الاسلامية في الرياضيات أكثر وضوحا، وهذا علم الحيوان الذي يسهل علينا من اسمه العربي أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب، كما أن الأرقام الحسابية التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العرب، وأن كثيرا من المعاني التي جادت بها قرائح الكُتاب والشعراء المسلمين أخذت واستعملت في الأدب الغربي، كما نلاحظ أن أثر الثقافة الاسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة في فن البناء وذلك في العصور الوسطى.

ولم تكن هناك وسيلة لتعرف أوربا الفلسفة اليونانية الا عن طريق الثقافة الاسلامية لأن التراجم اللاتينية لافلاطون وأرسطو لم تنقل أو تترجم من الأصل اليوناني مباشرة وإنما أخذت من التراجم العربية وأضيف اليها ماكتبه المعاصرون المسلمون مثل ابن رشد وابن سينا في الفلسفة الاسلامية.

ثم ينتهى رينيه جينو بقوله: هذا جزء من كل من أثر الثقافة الاسلامية في الغرب ولكن الغربيين لا يريدون أن يقولوا به لأنهم لا يريدون الاعتراف بفضل الشرق عليهم، ولكن الزمن كفيل باظهار

الحقائق[1].

كان تأثير الثقافة الاسلامية على أوربا تأثيرا عميقا في شتى نواحى الحياةوفيما يتصل بالمعارف والعلوم والفنون.

١- في الأدب:

قامت صلة وثيقة بين طائفة من عباقرة الشعر في أوربا بأسرها، خلال القرن الرابع عشر الميلادى ومابعده، وموضوعات الأدب العربي والثقافة الاسلامية على وجه لا يقبل التشكيك. ونخص بالذكر من هؤلاء بوكاشيو وبترارك ودانتى وهم من أعلام النهضة الايطالية، وشسر الكاتب الانجليزي الشهير، وسرفانيتس الأسباني، وإلى هؤلاء يرجع الأثر والتأثير البارز في قيام النهضة الأوربية في أوربا.

ففي عام ١٣٤٦م كتب بوكاشيو حكاياته التي سماها «الليالى العشرة» وحذا فيها حذو ليالى ألف ليلة وليلة التي كانت منتشرة حكاياتها في مصر والشام، وقد ضمن حكاياته مائة حكاية على غرار ألف ليلة وليلة وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا في بعض ضواحى المدينة فرارا من مرض الطاعون. وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح لقضاء وقت الفراغ وقتل الملل، وقد ملأت هذه الحكايات أقطار أوربا واقتبس منها الكاتب الانجليزى «وليم شكسبير» موضوع مسرحية «العبرة بالخواتيم» كذلك اقتبس منها «ليسينج» الألماني مسرحية «ناتان الحكيم». وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة

(١) الفيلسوف رينيه جينو أو عبدالواحد يحيى للدكتور عبدالحليم محمود، ص٥٠-٦٠.

الانجليزية من أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه، لأنه التقى به حين زار ايطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم « قصص كانتربرى ».

وكانت صلة دانتى[1] بالثقافة الاسلامية وثيقة، لأنه أقام فى صقلية في عهد الملك فردريك الثاني، الذى درس الثقافة الاسلامية في مصادرها العربية الأصيلة. وقد لاحظ أحد المستشرقين أن الشبه قريب جدا بين وصف الجنة في كلام الصوفى الكبير محى الدين بن عربى (١١٦٤ - ١٢٤٠م) في مؤلفه الكبير « الفتوحات المكية » وأوصاف دانتى لها في الكوميديا الالهية.

وقد كان دانتى يعرف شيئا غير قليل من سيرة الرسول ﷺ، فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة الاسراء والمعراج ومراتب السماء، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى، واقتبس من كل هذه المصادر معلوماته عن العالم الآخر التي أوردها في الكوميديا الالهية وأكبر القائلين بالاقتباس على هذا النحو هو عالم من أمة الأسبان انقطع للدراسات العربية: وهو الاستاذ آسين بالسيوس[2] Asin Palacios.

وقد عاش بترارك في عصر الثقافة الاسلامية بايطاليا وفرنسا، ودرس العلم بجامعتى مونبلييه وباريس بفرنسا وكلتاهما قامتا على تلاميذ علماء المسلمين في الجامعات الأندلسية.

---

(١) هو دانتى اليجيرى (١٢٦٥ - ١٣٢١م) وهو من مفاخر عصر النهضة، وهو صاحب الكوميديا الالهية، وقد قام بترجمتها إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان.

(٢) انظر أيضا: عبدالرحمن بدوى: دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى. بيروت ١٩٦٥، ص٦٣ - ٨٤.

أما سرفانتيس فقد عاش في الجزائر بضع سنوات وألف كتابه« دون كيشوت » بأسلوب لا يشك من يقرأه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية والامثال التي لا تزال شائعة بين العرب حتى هذه الأيام . وقد جزم برسكوت PRESCOTT صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الأسبان بأن فكاهة « دون كيشوت » كلها أندلسية في اللباب .

أما عن الشعر، فقد قال دانتى إنّ الشعر الايطالى ولد في صقلية بفضل الشعر العربى وبتأثير منه،ولقد شاع نظم الشعر بالعامية في اقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر الشعر في ذلك الاقليم على يد الشعراء الجوالين الذين عرفوا باسم « التروبادور » وواضح أن الأوربيين اشتقوا هذاالاسم من كلمة طروب العربية .وقد وجدت في أشعار الأوربيين بشمال الأندلس كلمات عربية واشارات لعادات اسلامية .

والشعر العربى الأندلسى في الموشحات والزجل كان السبب في نشأة الشعر الأسباني نفسه، والمرجح أن أول من ابتكر الموشح هو مقدم بن معافى القبرى الضرير ٩٩٢م وثلاثة آخرون أثروا هذا اللون من النظم « لسهولة تناوله وقرب طريقته » كما يقول ابن خلدون في مقدمته .

والزجل يكون عادة باللغة الدارجة بينما يكون الموشح بالعربية الفصحى . وهذان اللونان من النظم من ابتكار أهل الأندلس وهما اللذان أثرا في نشأة الشعر الأوربى، وقد أثبت الباحثون انتقال بحور الشعر الأندلسى والموسيقى العربية إلى أوربا .

وامتد التأثير العربي في نشأة الشعرالأوربى إلى بعض الموضوعات كالمغامرات، وطريقة علاج هذه الموضوعات،كما

يتمثل هذا في فكرة الحب العذرى التي تسود الغزل في الشعر البروفنسالى، فانه يرتد إلى الشعر الأندلسى، وأزجال ابن قزمان، وقد عرض فكرة الحب العذرى، ابن حزم في كتابه «طوق الحمامة».

أما في مجال القصة الأوربية فنجد أن هذه القصة تأثرت في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في العصور الوسطى وهي: المقامات، وأخبار الفروسية، وأمجاد الفرسان ومغامراتهم لاحراز المجد أو في سبيل الحب.

وترى طائفة من النقاد الأوربيين أن رحلات «جليفر» التي ألفها سويفت، ورحلة «روبنسون كروزو» التي ألفها ديفوى، تدين لقصص ألف ليلة وليلة، ولرسالة حى بن يقظان التى ألفها الفيلسوف الأندلسي المسلم ابن الطفيل، وقد وضح أنه كان لترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوربية أول القرن الثاني عشر أثر عظيم وبالغ الخطورة على الأدب الأوربى.

ولم تنقطع الصلة بين الأدب الاسلامي والآداب الأوربية الحديثة حتى اليوم. ويكفى لبيان الأثر الذى ابقاه الأدب الاسلامى في آداب الأوربيين أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم قد خلا شعره أو نثره من الاشارة إلى بطل اسلامي، أو نادرة اسلامية. ومن هؤلاء: شكسبير، اديسون، بايرون، سودى، كولردج، شيلى من أدباء الانجليز، ومن أدباء الألمان، جيته، هرور، وليسنج، ومن أدباء فرنسا: فولتير، لافونتين. وقد صرح لافونتين باقتدائه فى أساطيره التى ألفها بكتاب كليلة ودمنة الذى عرفه الأوربيون عن طريق المسلمين.

٢- في الفلسفة:

كان أثر المسلمين في التفكير الفلسفي لأوربا عظيما، وكانت أسبانيا هي مركز تأثير الفلسفة الاسلامية على الفكر الأوربى الغربي لأن أوربا لم تعرف فلاسفة الشرق الا عن طريق الأندلس حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابى وابن سينا والغزالى وغيرهم والعرب هم الذين حفظوا فلسفة كبار فلاسفة اليونان وعلى ماسطروه في كتبهم وبخاصة أرسطو وأوصلوا هذاالتراث إلى الغرب. فاتصال العقلية الأوربية الغربية بالفكر العربى هو الذى دفعها لدراسة الفلسفية اليونانية.

وقد قرر روجر بيكون أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المحفوظات التي حوت هذه الفلسفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الذين قاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضا شاملا.

ومن فلاسفة الأندلس الذين كان لهم أعمق الأثر في الفكر الأوربى، ابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد.

ويعد ابن رشد الشارح الأعظم لفلسفة أرسطو، وكان أول من أدخل فلسفة ابن رشد إلى أوربا « ميخائيل سكوت » سنة ١٢٣٠م. ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللاتينية. ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية بارو بايطاليا والمعلم الأكبر دون منازع[١].

(١) جوده هلال ومحمد صبح: قرطبة في التاريخ الاسلامى، ص ١٠٤- ١٠٥.

ويبدو أثر ابن رشد واضحا في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة. وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحا في فلسفة القديس توما الأكويني (١١٢٥ - ١٢٧٤م) حتى أن الفصول التي كتبها توما في العقل والعقيدة وعجز العقل عن ادراك الأسرار الالهية ليست الا مقابلا لما كتبه ابن رشد في باب «فضل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» وبلغ تأثر توما بفلسفة ابن رشد أن كتاب «الخلاصة» لتوما يحوى بعض مذاهب اسلامية الأصل، مما يثبت أن الأثر الذى تركه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد لشروح كتابات أرسطو وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير[١].

ويعد الفيلسوف الألمانى المعاصر كانت Kant من أكبر تلاميذ ابن رشد يقول جوستاف لوبون عن ابن رشد إنه: «كان الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، لما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب هذاالفيلسوف العربى ومذهب أرسطو[٢].

وكان للفيلسوف الصوفي محى الدين بن عربى (٥٦٠هـ/١١٦٤م - ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده.

يرى الأستاذ آسين بلاسيوس الأسباني أن نزعات دانتي الصوفية

(١) سعيد عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوربية. القاهرة ١٩٥٧، ص٣٦..

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥٦٩.

وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محى الدين بن عربى بغير تصرف كثير.

ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين هو جوهان أكهارت الألمانى فقد نشأ في القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس في جامعة باريس، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم، وأكهارت يقول كما يقول ابن عربى، إن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه، وأن الحقيقة الالهية تتجلى في جميع الأشياء ولا سيما روح الانسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح، وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة، والأجزاء بالكل، والأعضاء بالأجسام[1].

وقد اقتبس الفيلسوف المتصوف الأسباني- رايموندلول- من ابن عربى خاصة في كتابه «أسماء الله الحسنى» لأنه كان يحسن العربية، وعاش بعد ابن عربى بقرن واحد، وجعل أسماء الله مئة،وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذاك.

٣- في الطب:

جاء الاسلام فقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعى على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة ولم يحدث في مكان الكهانة طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين، بل سمح للنبي عليه الصلاة والسلام باستشارة الأطباء ولو من غيرالمسلمين فلما مرض سعد بن أبى وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له: «**إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع بك آخرون**»، ثم

(١) عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية. القاهرة ١٩٦٣، ص ٩٨-٩٩.

قال للحارث بن كلدة: « **عالج سعدا مما به** » والحارث على غير دين الاسلام. وذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله** ﴾ ومنها التطبيب أو هى الطب قبل سائر ضروب الحكمة، فجعل الاسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه، واتخذها وظيفة معترفا بها.

كان الطب العربى الاسلامي يستهدف حفظ الصحة على الأصحاء- وهذا هو الجانب الوقائى الذى نسميه الآن بعلم الصحة، وقد توصلوا إلي الوقاية من الأمراض بدراسة الجسم ووظائف أعضائه، وحاولوا الكشف عن أسباب الأمراض وطرق انتشارها، لمعرفة أساليب الوقاية منها، كما يستهدف الطب الاسلامي رد الصحة الى المرضى،وهذا هو شفاء الأمراض.

وقد تشعب الطب العربى الاسلامي في العصور الوسطى فروعا تخصص في كل منها فريق من الأطباء يقول ابن قيم الجوزيه (ت ٧٥١هـ- ١٣٥٠م): الطبيب هو الذي يختص باسم الطبائعى، وبمروده (وهو الكحال أى طبيب العيون) وبمبضعه وهو الجرائحى (أى الجراح) وبموسه وهو الخاتن،وبمحاجمه وشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم- بيطري، أو انسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء جميعا. بل إنهم عرفوا التخصص في طب الأسنان وأمراض التوليد والنساء والأطفال، والعيون- بل حتى طب الأمراض النفسية والعصبية. وقد التزم الأطباء بميثاق أخلاقى يعود الى أبقراط+ ٣٧٠ق.م. بل تنحدر بعض تعاليمه إلى مصر القديمة. وقد أوجب الخليفة المقتدر عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م على من يزاول

مهنة الطب أن يجتاز امتحانا يرخص له بمزاولة المهنة، وتقدم للامتحان في بغداد وحدها نحو تسعمائة طبيب، غير مشاهير الأطباء والصيادلة يخضعون للرقابة وفقا لنظام الحسبة في الاسلام.

وكان هذا وغيره في الاسلام في وقت حرمت فيه الكنيسة في أوربا صناعة الطب، لأن المرض عقاب من الله لا يجب علاجه أومنعه ورده، وظل الطب محرما في أوربا حتى عصر الايمان في مستهل القرن الثاني عشر أبان الحضارة الأندلسية.

وقد عرفت في طب العرب موسوعات طبية اسلامية ترجمت كلها إلى اللاتينية اطلع عليها أطباء أوربا ونهلوا من معينها حتى مطلع العصور الحديثة، كان في مقدمتها كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر. وقد جمع خلاصة الطب عند العرب واليونان والسريان والأقباط، وضم ملاحظات جديدة عن الالتهاب الرئوى وعدوى السل. مع وصف لسبعمائة وستين دواء. وقد ترجمه جيرار الكريمونى إلى اللاتينية وطبع عشرات المرات.

كما ترجم الحاوى للرازى (ت ٣٢٠هـ/ ٩٢٦م) وهو أكبر من القانون وأوسع مادة وموضوعا، وقد أكمله تلاميذ الرازى بعد موته، وترجم إلى اللاتينية في عام ١٤٨٦م. وفيه آراء جديدة عن الفتق والحجامة والحميات وأعصاب منطقة الحنجرة وعضلاتها، وله كتاب المنصورى الذى ترجم عام ١٤٨١م ورسالة عن الجدرى[١] والحصبة بوصف وتشخيص آية في الدقة لأول مرة.

ولعل الرازى كان أول واضع لعلم الطب التجريبي، فقد كان

(١) لاروس القرن العشرين: انظر الرازى.

يجرى تجاربه على الحيوانات، فيجرع القردة الزئبق، ويختبر تأثير الأدوية على الحيوانات ويسجل عليها العمل اليوم، فكان يدع مريضه يسرد قصته على سجيته، ثم يسأله عن احواله الحاضرة مفصلا، ثم عن سوابقه الشخصية والأرثية، ويدون جميع ذلك في سجل خاص، يحفظه للرجوع اليه، كلما لزم ذلك.

وكان الكتاب الملكى في الطب لعلى بن عباس (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) شائعا عند الأوربيين لستة قرون من الزمان (١)، كما كان خلف بن قاسم الزهراوى (ت ٤١٤هـ/ ١٠١٣م) معروفا عند الأوربيين بكتابه: «التصريف لمن عجز عن التأليف» بأجزائه الثلاثة. وقد أفرد القسم الأخير منها للجراحة، وفيه أشار إلى أهمية التشريح للجراح، ووصف كثيرا من الجراحات باسهاب، وأجرى جراحات في شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصاة في المثانة وخاصة عند النساء عن طريق المهبل. وسبق إلى استخدام ربط الشرايين، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعلاجه بالكى، وقد زود كتابه برسوم للآلات الجراحية. وقد ترجمه إلى اللاتينية جيرار الكريمونى وطبع في أوربا عشرات المرات، وكان مرجعا في جامعات سالرنو ومونيليه وغيرهما.

وفطن العرب إلى أمراض النساء والولادة، وحسبنا أن نشير إلى ماكتبه أمثال على بن عباس في توليد الجنين الميت، والأدوية المانعة للحمل، أو النصائح التي تتعين مراعاتها عند التوليد.

أما في علم الرمد فإن حنين بن اسحق= ٨٧٧م كان أول من

(١) سيديو: تاريخ العرب العام ٢ /٧٧.

طبع العربية بطابع الأسلوب العلمي، وكان كتابه « العشر المقالات في العين » أول كتاب موجود اصطنع فى طب العيون منهجا علميا، وزود برسوم شيقة، وهي أول وأدق رسوم عرفت في تشريح العين كما يقول ناشر الكتاب بالقاهرة ماكس مايرهوف- ويقول مؤرخ الطب العربي ادور براون: إن يوحنا بن ماسوية+ ٨٢٧م قد وضع كتابه « دغل العين » فكان أول كتاب عربي في علم الرمد وأقدم ماوضع في طب العيون في مختلف اللغات القديمة.

وكان الأطباء العرب في القرن العاشر، يعلمون تشريح الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة صقلية. واكتشف ابن النفيس الدمشقي المصري الدورة الدموية الصغرى، ونقلها عنه « هارفن » الانجليزي وعزاها لنفسه ومثل ذلك فعل « سرفينوس » الايطالى، ويدعم ذلك ماقاله المؤرخ المعاصر « مايرهوف »: « إن ماأذهلني حقا، مماثلة الجمل الأساسية في أقوال هذين الطبيبين لما كتبه ابن النفيس وكأنها ترجمت ترجمة حرفية »، ويؤيد ذلك أيضاً العالم « الدوميالى » في كتابه عن علوم العرب، كما يؤيده الأستاذ الدكتور ليون بينه Leon Binet أستاذ الفسيولوجيا بباريس.

وكان العرب أول من اهتدى إلى القول بأن الأوبئة تنشأ عن تعفن ينتقل عن طريق الهواء والمخالطة وسمو الأمراض المعدية بالسارية، ودليلها عندهم أن من خالط مريضا بها أو لبس ثيابه انتقلت إليه عدواه، وكانوا أول من فطن إلى تفتيت الحصاة في المثانة. ومن أوائل من استخدموا المخدر- وسموه بالمرقد- ولعلهم أول من اخترع الاسفنجة المخدرة، واستبدلوا بالأدوية الحارة الأدوية الباردة في علاج الفلاج والاسترخاء ونحوه، على غير ماكان الحال

عند أسلافهم من اليونان، وكانوا أول من استخدم في الجراحة الكاويات، ونبه إلى شكل الأظافر في المصدورين، ووصفوا صب الماء البارد لايقاف النزيف... الخ.

وعالج العرب الجنون علاج الأمراض الطبيعية، وكان يسمى عند الأفرنج بالمرض الالهي أو الشيطاني لأنهم حسبوه من اصابات الأرواح أو الشياطين. ولقد أورد صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء،من أسماء الأطباء العرب، مانيف عن الثلاثمائة،هذا عدا كثير من الذين لم يتح لهم حظ الشهرة وذيوع الصيت، ويعترف الفيلسوف الألماني « هومبولد » بأن العرب قد أبدعوا شيئا كثيرا في الطب، وأوجدوا علم الصيدلة الكيماوية، وعرفوا كثيرا من النباتات الطبية، والتي أضيفت إلى ماكان يعرفه الأغريقيون جاءت في كتب ابن سينا وابن داود وابن البيطار وغيرهم.

وحرص الخلفاء وأهل اليسار على إقامة المستشفيات والمعاهد لتعليم الطب ودور لعلاج المرضى،وكان أول من أقامها في الاسلام هو الوليد بن عبدالملك (عام ٨٨هـ/ ٧٠٦م) وقد قرر بها الأطباء وأجرى عليها الأرزاق. ثم عرفت حواضر الاسلام المستشفيات الثابتة والمتنقلة مع انتشار الأوبئة والأمراض، أو تنقل الخلفاء والأمراء؛ وقد زودت بصنوف الأدوية وأنواع الطعام والشراب والملابس والصيادلة والأطباء- وكان في كل مستشفى جناح للذكور وآخر للاناث؛ وخصص لكل نوع من الأمراض جناح خاص بمرضاه، وألحقت بكل مستشفى صيدلية تضم أنواع الشراب والمعاجين والأدوية، ويشرف عليها رئيس يتبعه معاونون، ويقيم المريض بالمستشفى أو يأخذ معه الدواء إلى بيته اذا لم يقتض مرضه الاقامة. ويتفقد الأطباء مرضاهم

في الأقسام التي يقيمون بها؛ وكانت تحبس الأوقاف على المستشفيات،وترصد لها الأموال وينفق عليها في سخاء؛ واذا فرغ الأطباء من أعمالهم مضوا إلى خزائن الكتب في مشتشفياتهم أو دورهم وأكبوا على القراءة لتكون عونا لهم في ممارسة مهنتهم؛ واذا دخل المريض المستشفى نزعت عنه ثيابه وحفظت مع نقوده عند أمين المستشفى ثم ألبس ثياب المستشفى وقدم له العلاج والغذاء والدواء بالمجان حتى يبرأ من مرضه.وعلامة ذلك أن يقوى على أكل فروج ورغيف؛ وعندئذ يعطى له مال وثياب ويؤذن له في الخروج،كما كان يحدث في مستشفى البيمارستان العتيق الذى انشأه أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م.

وقد اشتغلت النساء المسلمات بالتمريض منذ عهد الرسول وخاصة في أوقات الحروب، ومن هؤلاء النسوة: رفيدة الأنصارية[١]، وأم عطية الأنصارية،ونسيبة بنت كعب التي مرضت في موقعة أحد وحاربت مع الرسول ودافعت عنه،كذلك حاربت مسيلمة الكذاب في حرب اليمامة وفقدت في الحرب ذراعيها، وكانت هؤلاء النسوة يمرضن في معسكرات التمريض التي كانت في مؤخرة جيش المقاتلين وينتقلن مع الجنود ويحملن أدواتهن على الجمال والبغال.

٤- في الصيدلة أو الأقرباذين:

يقول البيرونى (ت ١٠٥٠م) إن الصيدلى[٢] أو الصيدلانى

---

(١) ابن الأثير:أسد الغابة ٧ / ١١٠.

(٢) جاءت كلمة الصيدلة من أصل هندى، واللفظ «صدلي» منقول إلى العربية من الهندية من لفظ «جندنانى» والجندن هو الصندل، وكان الصندل الهندى من العطور المعروفة عند العرب، واستعمله الهنود دواءً ردحاًمن الزمن.

يراد به: المحترف بجمع الأدوية على إحدى صورها، واختيار الأجود من أنواعها مفردة أو مركبة، على أفضل التراكيب التي خلدها أهل الطب،فهو الذى يجمع الأعشاب التي تستخدم في العلاج، والدواء وهو العقار في الصيدلية، ويراد بالأقرباذين تركيب الأدوية المفردة وقوانينها فيما يقول حاجى خليفة.

وقد صح عند الباحثين من الغربيين أن العرب هم الذين ابتدعوا فن الصيدلة، وأنهم أول من اشتغل بتحضير الأدوية الطبية، وقد جدوا في البحث عن العقاقير في مظانها المختلفة، وابتكروا الكثير جدا من أنواعها؛ وعنهم أخذت أوربا هذا الفن، ولا يزال الكثير من العقاقير يحتفظ في اللغات الأوربية بأسمائه العربية، وكان العرب أول من ألف الأقرباذين على النحو الذى يعرف به في أيامنا الحاضرة.

والعرب هم الذين ارتقوا بالصيدلة من مستوى مجرد تجارة العقاقير والتوابل إلى انشاء مدارس للصيدلة وحوانيت للصيدلة (الأجزاخانات) وكان أول من وضع الأقرباذين سابور بن سهل المتوفي عام ٢٥٥هـ،وأمين الدولة ابن التلميذ المتوفى عام ٥٦٠هـ. كما وضعوا الكتب الصيدلية الخاصة بالتراكيب أى الأقرباذين. وللدلالة على طول باعهم في هذا المجال هو تأليف دساتير الأدوية، ونذكر نخبة من أشهرها: الحاوى للرازى، قانون ابن سينا، وتذكرة داود الانطاكى، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار، وكتاب الصيدلة للبيرونى، وكتاب العقاقير للبيرونى.

وكان العرب أول من أدخل التقييم المهنى للصيدلة فعينوا لكل مدينة عميدا للصيادلة، كما أدخلوا الوصفة الطبية وعلى الطبيب أن

يحررها ويكتب الأدوية عليها؛ كما أدخلوا نظام إجازة الممارسة أسوة بما هو معمول بالطب بحيث لا يسمح للصيدلى بممارسة المهنة الا بعد اجتيازه الامتحان أمام المحتسب، وتقييد اسمه في جدول الصيادلة الخاص لذلك.

وهم أول من منع تدخل الصيدلى بأمور الطبيب ومنعوا الطبيب من امتلاك صيدلية أو التعاطى بالأدوية. وهم أول من وضع نظاما لمراقبة الأدوية وفرضوا تسعيرة الأدوية كما حذروا الصيادلة من بيع السموم الضارة، وكان يقوم بالتفتيش على الصيدليات المحتسب بشكل دورى، وربما أسبوعى وأحيانا برفقة الشرطة لمنع الغش والتدليس.

ومن الأعمال التي قام بها الصيادلة العرب تحسين ذوبان وطعم الأدوية، وأدخلوا تحضيرات جديدة كالمربيات والأشربة الحلوة والمستحلبات. وهم أول من استعمل الوسائل المعطرة بماء الورد والبرتقال والياسمين والليمون واليانسون؛ وقد حسن العرب المراهم والأدهان والمعاجين واللدائن في معالجة الأمراض الجلدية، وكانوا أول من غلف الأقراص بالسكر والفضة، حتى يصير طعمها مقبولا،كما حضروا الأقماع والتحاميل.

وقد تقدم علم الصيدلة ونما بشكل فريد دفع المسؤولين بضرورة حماية الجمهور من سوء استعمال الدواء، ولذلك كرست الحكومة فصل الطب عن الصيدلة وأصبحت بالفعل مهنة مستقلة قائمة بذاتها،وظهرت فئة من الصيادلة الممارسين وفتحوا حوانيتهم (الصيدلة) على الطرق مباشرة يبيعون الدواء من خلالها للمرضى

بناء على وصفات طبية،وبالتدريج تطورت مهنة الصيدلة وانفصلت عن العطار مثلما حدث بالنسبة لانفصالها عن الطب. وكان أول حانوت (صيدلية) قد افتتح في بغداد ولأول مرة في التاريخ،ولم تفتح الصيدليات في أوربا على هذه الشاكلة الا بعد خمسمائة سنة[١].

٥- في الكيمياء:

اتجه جمهرة القدماء إلى البحث في خصائص الأشياء، وتحويل المعادن الخسيسة- من رصاص وحديد وقصدير- إلى ذهب أو فضة. ولهذا اقترنت بحوثهم بالسرية والرمزية والغموض. وسرى هذا التيار عند بعض مفكرى العرب في عصورهم الوسطى، ولكن الكثيرين منهم قد انصرفوا عن ذلك الى الاتجاه ببحوثهم الكيميائية اتجاها تجريبيا واضحا.

ويكاد ينعقد الرأى اليوم عند الباحثين من الغربيين على أن العرب هم مؤسسو الكيمياء علما تجريبيا شأن غيره من العلوم الطبيعية؛ فهم الذين خلصوا دراساتهم من السرية والغموض والرمزية التي لازمتها عند أسلافهم- من علماء الاسكندرية بوجه أخص- واصطنعوا فيها منهجا استقرائيا يعتمد على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية. وقد استخدموا الموازين والمكاييل وغيرها من الآلات تحقيقا للدقة والضبط؛ وكانت هذه وثبة جريئة واعية في التمكين لمنهج البحث العلمي الصحيح.

---

(١) رياض رمضان العلمى: الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم. الكويت ١٤٠٨هـ. ص٣٧-٣٩.

وقد أحصى المؤلفون العرب الآلات التي استخدمها علماؤهم في بحوثهم الكيميائية فكان منها فيما يروى محمد بن أحمد الخوارزمي الكاتب (ت ٣٦٩هـ/ ٩٧٦م) في كتابه «مفاتيح العلوم»: الكود والبوطق (البوتقة) والمشاق (الماشة) والراط الذى يفرغ فيه مايذاب من ذهب أو غيره؛ وكان من آلات التدبير: الأنبيق والزق (لتصفية الزئبق وغيره) والموقد؛ وكان من العقاقير التي استخدموها في بحوثهم الملح بأنواعه المختلفة والزاجات (البلورات) واللازورد والكحل والزرنيخ وغير ذلك كثير.

وقد كان في مقدمة رواد الكيمياء علما تجريبيا جابر بن حيان. ويقول عنه هولمبارد Holmyard أستاذ الكيمياء بكلية كلفتون بانجلترا في كتاب أصدره عن مؤلفات جابر بن حيان سنة ١٩٢٣: إنه أول مبدعى الكيمياء على أسس علمية صحيحة، بل هو فيما قال ناشر رسائله- بول كراوس من أعظم رواد العلوم التجريبية لأنه جعل الميزان أساسا للتجريب، وهذا خير وسيلة لمعرفة الطبيعة معرفة دقيقة وقياس ظواهرها قياسا كميا، والكمية عند جابر تشتمل على الأعداد والأقدار من الأوزان والمكاييل وماشاكلها؛ وعنده أن المكيفات- وهي الصفات التي لا تقاس- لا أوزان لها؛ وهكذا أرجع ظواهر الطبيعة وكل معطيات المعرفة البشرية عامة إلى قوانين العد والقياس، وهذه- فيما يقول كراوس- أقوى محاولة في العصور الوسطى لاقامة مذهب كمى لعلوم الطبيعة[١].

ويسمى ابن خلدون الكيمياء بعلم جابر[٢]. ويعده مؤرخ الطب

---

(١) بول كراوس: جابر بن حيان: المجلد الثاني، ص١٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٥٠٤.

العربى لوسيان لوكلير أعظم علماء عصره، ومن أكبر علماء العصور الوسطى كلها، وكان جابر صاحب مدرسة تابعت بحوثه الكيميائية على أساس من الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، وقد وصف ملح النشادر ونترات الفضة والسليمانى وحامض الأزوت، وعرف كثيرا من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير والترشيح والتكليس والاذابة؛ وكان أول من لاحظ أن نترات الفضة تكون مع ملح الطعام راسبا أبيض وأن النحاس يكسب اللهب لونا أخضر وترجمت كتب جابر في الكيمياء إلى اللاتينية وظلت المراجع المعتمدة في الكيمياء لعدة قرون .

وأبوبكر الرازى (٨٦٦هـ- ٩٤٤م) أعظم رواد الكيمياء الأوائل، وقد وفق في كتابه « سر الأسرار » الذى ترجمه وشرحه يوليوس روسكا J.Ruska إلى تخليص الكيمياء من الرمزية والغموض، واتجه بها اتجاها تجريبيا علميا[١]، واقتصر على النتائج التي هدته اليها التجربة؛ وقد ضمن كتابه المواد التي استخدمها والأدوات التى استعان بها، وكذلك الطرق التي استعان بها في اعداد الخمائر المطلوبة، وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى،منها المعدنى والزجاجى وقد حضر الأحماض مثل حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج، وحضر الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية متخمرة وقدر الكثافة النوعية لعدد من السوائل باستعمال ميزان خاص. وحينما أرخ سارطون للعلم في الفترة التى عاش فيها الرازى جعل منه علما

---

(١) بارتنجتن : موجز تاريخ الكيمياء، ص ٢٩ .

Partington, J.R. "Ashort HiStory of Chomistry,Now York, 1960, P. 29.

عليها[١]، كما أنه أحد الرواد الذين كانوا طليعة المدرسة الكيميائية « الطبية » في عصر النهضة[٢]. ويقول مؤرخ الحضارة ول ديورانت: إن الفضل في ابتداع الكيمياء علما تجريبيا يرتد كله الى المسلمين لأنهم هم الذين اصطنعوا مناهج البحث العلمى وهو ميدان كان يجهله اليونان.

ومن أشهر علماء المسلمين في الكيمياء عز الدين بن أيدمر بن على الجلدكى (ت ١٣٦٢م) يقول الأستاذ الدكتور عزة مريدن في معرض حديثه عن العلماء العرب: (....... ومنهم هذا الجلدكى العجيب الذى ماقرأت قصيدته مرة الا أقسمت غير حانث إن هذا هومكتشف الذرة وواضع أسس الصواريخ، وهو يصف كنه الذرة في المعادن والعناصر الكيماوية ويشبهها بالمجموعة الشمسية على نحو مايفعل علماء الذرة اليوم حينما يبحثون في البروتون والنورترون المركزيين، والألكترون الذى يحيط بهما[٣].

ولعل التاريخ الأوربى لم يتأثر بشيء من كشوف العرب في المعدنيات كما تأثر بكشف البارود واستخدامه في قذائف الحصار وأسلحة القتال.

٦- في الطبيعيات:

في دراسات العرب في علم الطبيعة تتمثل خصائص المنهج العلمى التجريبي السليم. ومن أعلام هذا الاتجاه الحسن بن الهيثم

---

(١) جورج سارطون: مقدمة لتاريخ العلم. المجلد الأول، ص٥٨٧.

(٢) المصدر نفسه: وانظر أيضا و.س. دامبيير: تاريخ العلم، ص٨١.

(٣) عزة مريدن: فضل العرب على الانسانية في الميادين العلمية. محاضرة نشرها المجلس الأعلى للعلوم عام ١٩٦١، ص٩- ١٦.

(ت ١٠٢٩م) وأبو الريحان البيرونى (ت ١٠٤٨م) فأما أولهما فقد كان عالما رياضيا قدر له أن يكون منشيء علم الضوء غير منازع، اذ ميزت دراساته دقة أوصافه للعين وادراك الرؤية وتفسير الانكسار الجوى والرؤية المزدوجة.

وقد درس بمنهجه العلمي الدقيق انعكاس الضوء ووضع نظرية كانت اجابة على هذا السؤال: اذا كانت لدينا مرآة اسطوانية وشيء آخر يشبه النقطة، فكيف نحدد الوضع الذى تتخذه العين لترى هذا الشيء في المرآة؟ وكانت اجابة ابن الهيثم في صورة معادلة من الدرجة الرابعة حلها عن طريق خط تقاطع دائرة وقطاع زائد. وهكذا بدت نزعة العلمية الدقيقة في نظريته في انعكاس الضوء.

وكان من رأيه أن الضوء ينشأ من المرئيات ولا ينبعث من العين ليلمسها كما ظن– خطأ– أسلافه من القدماء. وأعظم كتبه في هذا المجال هو « المناظر »[١]، وقد ترجم فردريك رستر Frederick Risner هذا الكتاب إلى اللاتينية ونشر في مدينة بازل بسويسرا عام ١٥٧٢م بعنوان « كنز البصريات »[٢] واثر تأثيرا بالغا في وايتلو + (١٢٧٠م Witelo وروجر بيكون + ١٢٩٢م وليونارد دافنشى + ١٥١٩م وكلير +١٦٣٠م وغيرهم من علماء أوربا المعروفين.

أما البيرونى فقد كان بدوره من أشهر علماء الطبيعة والرياضة. وقد توصل في ضوء منهجه العلمى إلى تقديرات للثقل النوعى

---

(١) وصف العلامة مصطفى نظيف ابن الهيثم بأنه يأتى « في المقدمة بين علماء الطبيعة النظرية بما وضع من ظواهر الضوء. وأن أثره في العلم لا يقل عن أثر نيوتن في علم الميكانيكا ». انظر حميد مورانى وعبدالحليم منتصر: قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٢٧–١٢٨.

(٢) جوان فيرنيه: الرياضيات والفلك والبصريات في (تراث الاسلام) ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقى العمد: الجزء الثانى، ص٣٤٠.

وأبعاد الأرض، وظواهر الشفق وكسوف الشمس ونحوها من ظواهر، في دقة أثارت الباحثين من الغربيين،حتى قال عنه المستشرق أدور سخاو، « انه أعظم عقلية عرفها التاريخ ». واستخدم البيرونى في تقديراته للثقل النوعى جهازه المخروطى الذي يعد أقدم مقياس للكثافة.

والخازن وهو أحد علماء النصف الأول من القرن الثانى عشر- وصف الموازين وله كتاب « ميزان الحكمة » وبه وصف دقيق للموازين التي كان يستعملها المسلمون في تجاربهم ومنها ميزان توزن فيه الأجسام في الهواء والماء. ويشتمل الكتاب كذلك على الكثير من الأوزان النوعية للمعادن والسوائل وسائر المواد الأخرى.

وللخازن أيضا نظريات في الضوء. وقد لاحظ من ألف سنة انكسار الأجسام عند انغماسها في الماء، وقد ترجمت كتب الخازن إلى اللاتينية ثم إلى الايطالية في وقت مبكر واستعان بها رجال العلم في أوربا. واستقى روبرت جروستست Grosseteste (١١٧٥- ١٢٥٣م) أسقف لنكولن الذى يعتبر أول مثل بارز لعلماء الطبيعة في غرب أوربا في أوائل القرن الثالث عشر معلوماته من ترجمة لاتينية لكتاب الخازن. كذلك أخذ روجر بيكون.

ولقد ساعدت أفكار البيرونى وابن سينا في الجاذبية الأرضية نيوتن ومهدت له سبيل الكشف لقانون الجاذبية وتعليل الثقل على الأساس العلمى الحديث[١].

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية، ص٤٠ .

٧- في الفلك :

برع العرب في علم الفلك وتقدموا فيه تقدما كبيرا، وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد، ودمشق،وسمرقند، والقاهرة، وفاس، وطليطلة، وقرطبة،وغيرها[١] وأقاموا له المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف البلاد الاسلامية من أواسط أسيا إلى المحيط الأطلسى وكان من أهمها مرصد بغداد الذى دام ازدهاره سبعة قرون من سنة ٧٥٠ إلى سنة ١٤٥٠م[٢]. وقد توصلوا عن طريق هذه المدارس، وتلك المراصد إلى معلومات واكتشافات هامة، منها :

ادخال خطوط التماس في الحساب الفلكى منذ القرن العاشر الميلادى، ووضع جداول لحركة الكواكب،وتحديد سمت الشمس تحديدا دقيقا، وتدرجه في النقص، وتقدير تقدم الاعتدالين[٣] تقديرا صحيحا، ووضع أول تحديد صحيح لمدة السنة، واثبات مافى أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام، واستكشاف عدم التساوى القمرى الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير[٤].

والتوصل إلى نظرية دوران الأرض، والاسطرلاب، وكان أنواعا

---

(١) الفونس ايتين رينيه :محمد رسول الله،ص٣٧٥ .
(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص٤٨١ .
(٣) الاعتدالان : الاعتدال الربيعى هو اليوم الحادى والعشرون من مارس من كل عام حيث يتساوى فيه الليل والنهار، والاعتدال الخريفى مماثل يقع في الثالث والعشرين من سبتمبر.
(٤) جوستاف لويون : حضارة العرب، ص٤٨١ .

من التـام والمـسطح والهـلالى والمطبح[١] واختـراع آلة الرصـد[٢] «التلسكوب» والآلة المعروفة بالمثقال التي يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال،وحددوا في جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة في المساجد تحديدا دقيقا، إلى كثير من المعلومات الفلكية الهامة.

وبذلك أضافوا إلى الفكر الانسانى معلومات فلكية جديدة لم تكن معروفة من قبل، وإلى جانب هذه الاكتشافات العظيمة العديدة صححوا كثيرا من الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها الأغريق[٣] وبهذا وذاك استفادت أوربا والحضارات الحديثة فوائد ذات بال في علم الفلك، مما نشاهد آثارها اليوم، ومازال علم الفلك إلى الآن مليء بالاصطلاحات العربية.

وكان من مقدمة رواد الفلك من العرب بنو موسى بن شاكر، وأبومعشر البلخى (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٦م) وثابت بن قرة، والفرقانى، والبوزجانى، والبيرونى وغيرهم، ممن ترجمت مؤلفاتهم إلى اللغة اللاتينية خاصة، وكانت مرجع الأوربيين حتى أواخر عصورنا الحديثة.

---

(١) انظر مادة اسطرلاب القيمة التي كتبها نللينو في دائرة المعارف الاسلامية حـ٢، ص١١٤–١١٨.

(٢) يصفه أبوالحسن الذى اخترعه بأنه أنبوب مثبت في طرفيه عدسات.

(٣) قاس الفلكيون العرب زمن الخليفة المأمون محيط الكرة الأرضية وتوصولوا إلى الرقم ٤١٢٤٨ كيلو مترا، وهو مقارب جدا للرقم الحقيقي البالغ ٤٠٠٠٠ كم وصححوا بذلك الرقم الأغريقى وهو ٣٨٣٤٠ كم. كما عرف الفلكيون القدماء قطر الأرض وقدروه بالرقم ٧٦٣٦ ميلا تقريبا وبذلك يكون نصف القطر عندهم ٣٨١٨ ميلا تقريبا (انظر ماذكره ابن ستة في «القول في الأجرام والأبعاء» الاعلاق النفسية، ص١٧– ٢٠.

٨- في الرياضيات :

وجه العرب جانبا كبيرا من اهتمامهم بالعلوم إلي الرياضيات . فذاعت دراستها لديهم ونبغوا فيها، وتقدموا في أبحاثها تقدما سريعا جوهريا، وأضافوا إلى مانقلوه عن اليونان والهنود الكثير مما لم يكن معروفا من قبل .

ترجم العرب رسائل هندية في الفلك وعنها عرف العرب الأرقام الهندية التي هذبوها وسلموها إلى أوربا فعرفت باسم الأرقام العربية . وقد استخدم محمد بنموسى الخوارزمى هذه الارقام في جداوله الرياضية وقد اطلق اسمه على الطريقة الحسابية التي تقوم على النظام العشرى، كما أنه أسهم في تقدم الحساب والجبر بكتابه المنظم المبتكر « حساب الجبر والمقابلة » وقد نقله إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر « ادلار أوف بات » الذى درس العربية في مدارس الأندلس، ونشره تحت عنوان « الفورتمى » نسبة إلى اسم صاحبه العربى .

وفي عام ٩٧٦م رأى محمد بن أحمد الخوارزمى (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) في كتابه « مفاتيح العلوم » أن العمليات الحسابية اذا خلت من رقم في مكان العشرات، تعين وضع دائرة صغيرة حتى تساوى الصفوف، واطلق على هذه الدائرة اسم « الصفر »، والصفر يعتبر من أخطر النظريات التي اهتدى اليها العقل البشرى في الرياضيات، وفضل العرب فيه عظيم، يقول المؤرخ « أير » « إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التى قدمها المسلمون إلى عرب أوربا « والواقع أن علامة الصفر خطوة عظيمة الأهمية في تصحيح الحساب » .

وقد استعمل العرب (الصفر) للدلالة على (لاشيء) كما يبدو من بيت الشعر الذى جاء في قصيدة لحاتم:

ترى أن ماأهلكت لم يك ضرنى وأن يدى مابخلت به صفر[1]

وكما ساعدهم نظام الأعداد العربية على ادراك الكمال في الطرق الأولية للحساب فإن معرفتهم خصائص الأعداد الفردية والزوجية، ومابينهما من العلاقات ساعد على استخراج الجذور التربيعية والتكميلية[2].

ويدين علم الجبر باسمه إلى العرب، فهم أول من أطلق عليه اسمه، ولا يزال الفرنجة يحتفظون حتى اليوم باسمه العربى Algebra وقد كان العرب أول من كتب فيه على نهج علمى، وفى كتاب الخوارزمى السالف الذكر توجد أصول هذا العلم ومقوماته كما توجد أقدم جداول حساب المثلثات. والخوارزمي هو صاحب الحلول التحليلية والهندسية لمعادلات الدرجة الثانية، وقد عولت الجامعات الأوربية على كتاب «الجبر والمقابلة»[3] حتى القرن السادس عشر وعنه عرفت كلمة الجبر في اللغات الأوربية. يقول الدكتور على مصطفى مشرفة «ليس الخوارزمى واضعا لعلم الجبر فحسب بل إنه يتضح أن انتشار العلم في المشرق والمغرب إنما يرجع الفضل فيه بعد ارادة الله إلى كتاب الخوارزمى الذى صار المرجع

(١) جورج يعقوب: أثر الشرق في الغرب، ص٢٢-٢٤.
(٢) ى.هل: الحضارة العربية ترجمة ابراهيم العدوى، ص١٠٨.
(٣) تحتفظ له جامعة كمبردج بأصل كتاب للحساب، كما تحتفظ جامعة أكسفورد بأصل كتابه «الجبر والمقابلة» ومازال هذا الكتاب يترجم في القرن العشرين. فقد ترجم عام ١٩١٥.

الأول للمؤلفين والمترجمين من عرب وأعاجم ولذلك يحق لنا أن نقول إن الخوارزمى هو واضع علم الجبر ومعلمه للناس أجمعين » .

وزاد نصيــــر الدين الطوسى (٥٩٧- ٦٧٢هـ- ١٢٠١- ١٢٧٤م) فوضع كتابا صاغ أصله تحت العنوان نفسه. وتوصل علماء العرب في هذا المجال إلى حلول للمعادلات- جبرية وهندسية. وهذا هو استخدام الرموز التى كلف بها المحدثون من الرياضيين الغربيين، تفاديا للغموض وتحقيقا للدقة.

وكان للعالم العربى ثابت بن قرة (٢٢١- ٢٨٨هـ/ ٨٣٦- ٩٠١م) الفضل في ابتداع علم التفاضل والتكامل وأسهم معه في هذا الفضل أبو الوفاء محمد البوزجانى (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٨م) وكان لهذا العلم تأثيره الملحوظ في تقدم الرياضة والطبيعة فى عصرنا الراهن.

ويدين علم حساب المثلثات بوجوده لرياضى العرب؛ يقول العلامة « هل » « ومن تراث العرب علم حساب المثلثات وعلم الزوايا والتماس. ولم يكن في استطاعة بيور باخ، رجيونا نوس وكوبرنيق أن يصلوا إلى ماوصلوا اليه دون أساس من علوم العرب، وماساهموا به في ميدان الرياضيات، ذلك أن العرب أحبوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوراسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط،

واستخدم العرب هذا العلم أيضا في تصميم مجارى المياه[١].

٩- في علم النبات :

نما علم النبات على يد العرب في خدمة الطب والصيدلة والفلاحة، وقد اصطنعوا في دراساتهم للنباتات الملاحظة والمعاينة حتى كان رشيد الدين الصورى (٥٧٣- ٦٣٩هـ/ ١١٧٧- ١٢٤١م) يصحب معه مصورا يحمل الأصباغ المختلفة ويتوجه إلي المواضع التي فيها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها، وكان يرى المصور النبات في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إياه، وقت كماله وظهور بذره فيصوره تلو ذلك،ثم يريه إياه في وقت ذواه ويبسه فيصوره[٢]. وهكذا يبدو النبات في صور شتى تمثله في كل أدواره كما يرى ابن أبى أصيبعة[٣].

وفي ضوء هذا المنهج التجريبي وفق علماء العرب في معرفة الكثيرمن المواد الطبيعية التي كان يجهلها أسلافهم، وأدخلوها في العقاقير الطبية، ولعلهم أول من استخدم الراوند وخيار الشنبر والمن والكافور. بل أنهم استطاعوا أن يستولدوا الأسود، وأن يكسبوا بعض النباتات خصائص العقاقير في مفعولها الطبي.

ومن أشهر علماء العرب دقة في دراسة النباتات أبوجعفر أحمد ابن محمد الغافقى (ت ٥٥٠هـ/ ١١٦٠م) وقد ضمن كتابه في

---

(١) ى.هل: الحضارة العربية، ص١٠٨.
(٢) الأعلام: ٣/ ٢٣.
(٣) طبقات الأطباء: ٢/ ٢١٦.

الأدوية المفردة أسماء النباتات بالعربية واللاتينية والبربرية،ويرى ماكس ماير هروف أن الغافقى هو أعظم صيادلة العرب أصالة وابداعا، وأحسن علمائهم في النبات مكانة طوال العصور الوسطى، وأن كان المشهور أن أعظم علماء النبات هو ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وأهم كتبه «الجامع في الأدوية المفردة» وقد ضم أكثر من ألف وأربعمائة صنف من الأدوية، يقال أن بينها أربعمائة صنف لم يسبقه اليها صيدلانى من قبل. وهو أول عالم اهتم بدراسة الحشائش التي تنبت في الحقل وتضر بالمحاصيل.ومن رواد علماء الزراعة المسلمين: أبو عبدالله بن بصال الطليطلى، وابن مالك الطغنرى الغرناطى، وابن العوام الأشبيلى وابن لونكو القرطبى.

وقد عاش ابن بصال في طليطلة في عصر بنى ذى النون،ملوكها من الطوائف، في أواسط القرن الخامس الهجرى (الحادى عشرالميلادى) وكان يعنى بالاشراف على حدائق بنى ذى النون الفخمة التى كانت (بالمنية) الشهيرة التي أنشأوها خارج طليطلة. وقد اشتهر ابن بصال يومئذ بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الغراس، ومكافحة الآفات الزراعية، وكتابه «الفلاحة» يشهد ببراعته في هذا الميدان.وهو يتناول فيه ذكر المياه والأرضين، ومختلف أصناف النباتات وطبائعها وعلاجها من الآفات.

وأما الطغنرى، فهو أبو عبدالله محمد بن مالك وهو غرناطى، وقد عاش بمملكة غرناطة في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، ووضع كتابا في الفلاحة سماه «زهر البستان ونزهة الأذهان» وهو لايزال مخطوطا لم ينشر.

وأما ابن لونكو، فقد عاش في قرطبة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى، وكان أيضا من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الباهرة. وقد توفى سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م).

وأما ابن العوام الاشبيلى فهو حسبما يرد ذكر اسمه في كتابه، أبوزكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلى،عاش في أشبيلية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادى،وهو يقدم الينا في مؤلفه الضخم كتاب «الفلاحة» عرضا مستفيضا للفنون الزراعية.وقد نشر هذا الكتاب في سنة ١٨٠٢م بمدينة مدريد، وقام على نشره العلامة المستشرق القس يوسف انطونيو بانكيرى وقرنه بترجمة أسبانية.

وقد نقل العر ب من المشرق وشمال أفريقيا إلى أسبانيا كثيرا من المحاصيل والأشجار كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل الذى مازالت تزدان به الحدائق والمدن الأسبانية الجنوبية، والزيتون الذى غدا فيما بعد، وحتى اليوم أعظم محاصيل أسبانيا.

وأما نبوغ مسلمى الأندلس في تنظيم وسائل الرى والصرف واستجلاب المياه وتوزيعها بالطرق الفنية فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن في وديان الأندلس،من القناطر والجداول الدارسة،ومازالت ثمة مناطق كثيرة ولا سيما في أحواز بلنسية ومرسية، تقوم في زراعتها على مشاريع الرى الأندلسية القديمة.

وقد انتقلت الفنون الزراعية على يد الرواد المسلمين، وعلى يد المحلات الاسلامية المتعددة التي قامت خلال القرن العاشر الميلادى في جنوبي فرنسا، وفي ليجوريا وجنوبى سويسرا، إلى شعوب هذه الأقطار،ويقال أن القمح الأسود الذى يعتبر اليوم من أهم

محاصيل جنوب فرنسا إنما هو أثر من آثار أولئك الرواد، فهم الذين نقلوا بذوره إلى فرنسا، وهم أيضا الذين نقلوا فسائل النخيل الذى مازالت تزدان به شواطىء الريفييرا.

يقول « سينوبوس » : إن المسلمين استعملوا جميع أنواع الزراعة وحملوا كثيرا من النباتات إلى صقلية وأسبانيا وربوها في أوربا فأحسنوا تربيتها حتى تظنها متوطنة ومثل ذلك الأرز والزعفران والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين والقطن والقصب » .

وقد عرف العرب تربية الدجاج على أسس علمية،وكان موفق الدين عبداللطيف البغدادى الذى ولد في أوائل القرن الحادى عشرالميلادى بمدينة بغداد، أول من وصف تربية الدجاج على أسس علمية في التغذية والتفريخ، بل إنه قال بالتفريخ في الحضانات .

١٠- في علم الحيوان :

عرف العرب التهجين، وتحسين النسل، وتجويد الحيوانات الملبونة، والخيول العربية الأصيلة، ذات الشهرة العالمية، لاتزال شاهدة على ذلك، ومن علماء العرب الذين اشتهروا بالكتابة في علم الحيوان الجاحظ والدميرى .ولعل كتاب « الحيوان » الذى ألفه الجاحظ، يعتبر من أروع ماكتب في علم الحيوان، من حيث الدقة والوصف والأدب، فقد كان الجاحظ أديبا وعالما ومؤلفا، كتب البخلاء، والبيان والتبيين، وترك لنا كتاب « الحيوان » الذى كان دقيقا فيه بعلمه، باحثا مخلصا في تجاربه، فلقد كان يقطع بعض الأعضاء، ويلقى ببعضها في السم، ويستقصي عن البيض، ويذبح الحيوان

ليفتش في جوفه، أو يدفنه باهالة التراب الخفيف عليه، ليعرف حركاته أو يذوقه ليفحص طعم لحمه، أو يشق بطن أنثاه ليعرف مقدار ولده،وموضع كل واحد منها، أو يجمع الأضداد ليرى تقاتلها الى غير ذلك.

وكمال الدين الدميرى (٧٤٢- ٨٠٨هـ/ ١٣٤١- ١٤٠٥م) وكتابه «حياة الحيوان» عمل عظيم ذاع صيته في الشرق الأوسط والغرب،وهو قاموس حيواني، رتب فيه صاحبه الحيوانات على حروف المعجم؛ وفي مجلة المشرق ١٠ : ٧٦٥ ثم ١٥ : ٣٩٢ أن الكولونيل جايكار A.S.G. Jayakar أحد أساتذة كلية بمباى بالهند ترجم كتاب «حياة الحيوان» إلى الانجليزية وطبع القسم الأول منه في لندن سنة ١٩٠٦، والقسم الثاني سنة ١٩٠٨م.

١١- في علوم البحار:

إن الفضل في تسمية «علم البحر» يرد بالدرجة الأولى للملاح العربى أحمد بن ماجد الذى عاش في ظفار بجنوب الجزيرة العربية في القرن الخامس عشر الميلادى وشهد مطلع القرن السادس عشر كذلك[١]. والملاحة الفلكية الحديثة التي تعتمد بالدرجة الأولى على ارصاد النجوم الملاحية التي لا تزال تعرف بأسمائها العربية قد أسهم العرب في تقدمها اسهاما كبيرا ومن بعده علم المثلثات الكروية وقد وضع أصولها علماء عرب واستخدموهما في قياساتهم الفلكية وفي ضبط المراحل الملاحية، وقد طور العرب منذ عصر الخوارزمى

(١) توفى بعد سنة ٩٠٤هـ- ١٤٩٨م «الأعلام: ١/ ٢٠٠»

وعلماء الأندلس الاسطرلاب ثم استعاضوا عنه في قياس ارتفاع النجوم بأجهزة علمية يعتمد تدريجها على حساب المثلثات وعلى اتخاذ خط الأفق الذى يسهل رؤيته في البحر كونه أحدثى للقياس بدلا من المحور الرأسى المستخدم في الاسطراب ،الذى يتأثر بقلقله المركب، وكانت قياساتهم لهذا السبب أكثر دقة من قياسات البرتغال(١).

وابن ماجد أول من طور البوصلة الملاحية بالمفهوم الحديث وكانت تسمى الحقة؛ وعن العرب- إبان الحروب الصليبية- عرفها الأوربيون؛ وأول بوصلة من هذا النوع وبهذا الاسم صنعت في ايطاليا بعد عصر ابن ماجد بنحو خمسين سنة، بل إن كلمة بوصلة هي ترجمة حرفية لكلمة « الحقة » العربية(٢).

ويعتبر كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد (في العلوم البحرية) مثالا لما يمكن ان تحتوى عليه المرشدات الملاحية، ففيه يصف المؤلف هذا العلم بأنه من العلوم المضبوطة العقلية التي تمكن الربان من الوصول إلى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف،كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواضع البلدان بالضبط، ويقتضي ذلك معرفة الربان- بالنجوم الملاحية وطرق رصدها بدقة وتقسيم دورة الرياح ومعرفة الاتجاهات وكذلك مواسم السفر الملائمة وفقا للرياح والتيارات من وإلى الموانى المختلفة؛ ويضيف ابن ماجد إلى كل ذلك مايسميه بعلم الارشادات

---

(١) أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب. الكويت، ص١٢.
(٢) المصدر السابق.

ويقصد بها معالم السواحل والجزر وخصائص المياه وطبيعة القاع وقدرا من المعلومات عن الأسماك والطيور وحشائش البحر التي تعين الربان على التعرف على السواحل المختلفة.

ولقد ظهر في الأمة الاسلامية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين اتقنوا الملاحة، وعرفوا الكثير من أسرارها،ولهم فيها مصنفات ظلت قرونا مرجعا للافرنج يستفيدون منها، ويستغلون محتوياتها بما يعود عليهم بالتقدم والرقي نذكر منهم محمد بن شاذان، وسهيل بن أبان، وليث بن كهلان، وسليمان الماهرى، وعبدالعزيز بن أحمد المغربي وغيرهم.

١٢- في الجغرافيا:

أسهم العرب في تقدم علم الجغرافيا بنصيب موفور، يدل على ذلك مؤلفاتهم الكثيرة فيه، ومافيها من معلومات لم تكن معروفة من قبل.

واذا كان اليونان قد سبقوهم في ذلك فانهم هم الذين حفظوا معارف اليونان ودرسوها، ثم لم يلبثوا- كعادتهم- أن فاقوهم فيها، فصححوا مانقلوه عنهم، وأضافوا إليه الكثير مما لا عهد لليونان ولا لغيرهم به، وقد ترجم بعض تراثهم في ذلك إلى اللاتينية في العصور الوسطى، والحق أن أوربا مدينة للعرب في معرفة المعلومات اليونانية في الجغرافيا، فهى لم تعرف هذه المعلومات الا من الكتب العربية.

وقد ساعد العرب على هذا التفوق حبهم للسياحة والرحلات، فجابوا البلاد من الصين إلى مجاهل أفريقيا، وأقاموا علاقات تجارية

واسعة مع بلاد لم يسمع بها الأوربيون، أو شكوا في وجودها.

ومن طلائع هؤلاء الرائدين التاجر سليمان، والذى أبحر من سيراف على الخليج العربى، وجاوز المحيط الهندى، وبلغ شواطىء الصين، ثم كتب رحلته في سنة ٨٥١م، وكتابه هو أول مؤلف نشر في بلاد الغرب عن بلاد الصين وقد نقل إلى اللغة الفرنسية(١).

ثم جاء من بعده المسعودى (٣٤٦هـ) الذى قضى خمسا وعشرين سنة من حياته في الطواف في الدولة الاسلامية، وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند وقيد ماشاهده في تآليفه المهمة التي يعد أشهرها كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذى قال فيه ابن خلدون: «إنه شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده شرقا وغربا، وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحاروالممالك والدول، فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه».

كما قام ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) برحلاته التى طاف فيها بجميع أنحاء العالم القديم تقريبا، وقد ترجمت هذه الرحلة إلى أكثر من لغة، وطبعت في باريس في عامى ١٨٥٣ و١٨٥٩، ولندن عام ١٨٢٩، وبرلين عام ١٩١٢م.

وعن فضل الرحالة المسلمين كتب المؤرخ زكى حسن في خاتمة كتابه «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» يقول: «وحسبنا لتبيان فضل الرحالة المسلمين أن ينتهى بنا المطاف إلى أن

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٩١ - ٤٩٢.

دراستهم على نحو واف دقيق أمر لا بد منه لكل بحث في تاريخ التجارة، أو النظام السياسى، أو التاريخ الاجتماعى في الشعوب الاسلامية والأمم التي اتصلت بها، فان ماكتبه الرحالة المسلمون من وصافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه، حيث إنه يضم الوثائق عظيمة الشأن في تاريخ الانسانية وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة، مطمئنا إلى نتائج بحثه، اذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة وبشىء من الحذر الذى يتطلبه النقد العلمى عند معالجة النصوص في العصور الوسطى غربية كانت أو شرقية[١].

وكتب الكاتب نفسه مستشهدا بقول أحد المستشرقين الروس ماينم على تفوق الرحالة المسلمين على نظرائهم في الغرب فيقول: «وقد كتب المستشرق الروسى فلاديمير مينورسكى أن جغرافى العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركوبولو العالم البندقى، وأن أخبار رحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعا وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطورا في كتب علماء اليونان وجداولهم، وأن عملهم الذى ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختياراونقدا، وأكثر في في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقى العظيم ماركوبولو[٢].

واشتهر بعلم الجغرافيا كثيرا من علماء العرب، وأبرزهم الشريف الأدريسي، وقد ألف في سنة ١١٥٤م كتابه «نزهة المشتاق في ذكر

---

(١) زكى حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص١٧٩.
(٢) المصدر السابق، ص١٨٠.

الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وهو كتاب عظيم، اشتمل على معلومات من سبقه، وعلى ماشاهده بنفسه، وماسمعه من السائحين قبله،وهو مزود بأكثر من أربعين مصورا جغرافيا، ومصوره عن منابع النيل يثبت أن معارف العرب في جغرافية أفريقية أعظم مما كان يظن، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية،وتعلمت منه أوربا علم الجغرافيا في القرون الوسطى، وظلت تعول عليه أكثر من ثلاثة قروق.

وقد وضع الادريسي خريطة للأرض صنعها من الفضة الخالصة وهى تزن ٤٠٠ رطل وتعتبر الأولى من نوعها؛ وقد أوضح عليها الأقاليم والبلدان والأنهار والبحار وقد قسم الادريسي الأرض في كتابه حسب خطوط العرض وكان أول من قسمها حسب خطوط الطول.

وقد توقع الادريسي وجود أمريكا في الطرف الثاني من الأرض، قبل اكتشافها بعدةقرون، ولقد نشرت مجلة « نيوزويك » الأمريكية، في عددها الصادر بتاريخ ١٠مايو ١٩٦١، أن الدكتور « هوى لن لى » أستاذ البيولوجيا في جامعة « بنسلفانيا » أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية، قبل كريستوف كولومبس بأربعة قرون ».

يقول المؤرخ جوتيه: «إن الشريف الادريسي الجغرافى كان أستاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هذاالعلم وظل معلما لها ثلاث قرون؛ ولم يكن لأوربا مصور للعالم الا مارسمه الادريسي؛ ومنهم ياقوت الحموى (٥٧٤- ٦٢٦هـ/ ١١٧٨- ١٢٢٩م) صاحب كتاب

« معجم البلدان » وهومعجم وموسوعة جغرافية ضخمة إلى جانب مافيه من معارف تاريخية وأدبية عظيمة؛ يقول المؤرخ « سارطون » إن كتاب معجم البلدان لياقوت، منجم غنى جدا للمعرفة، وليس له نظير في سائر اللغات » ووضع أبو الفدا (أمير حماه) كتاب تقويم البلدان، الذى ترجم إلى اللاتينية في القرن الثامن عشر، وكان مرجع كثير من علماء الغرب.

وهكذا يتجلى فضل العرب في هذا العلم، يقول العلامة جوستاف لوبون « ويكفى أن نشير مع ذلك إلى ماحققه العرب في الجغرافيا لاثبات قيمتهم العالية، فالعرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينا مضبوطا في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوربيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التى جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونا كثيرة[١].

١٣ - في علم الاجتماع:

يبحث علم الاجتماع أو السوسيولوجيا، عن أحوال الجماعات والشعوب وماتتصف به في محافلها ومعايشها، وأعيادها ومواسمها، وما إلى ذلك أو هو يبحث عن عوامل تكوين الشعوب والأمم وتطورها ونضجها وقوتها، ثم مايعتريها من عوامل الضعف والانحلال ومايتصل بذلك.

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٩٩، وراجع الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى للاستاذ آدم متز ٢ / ١٢.

وسواء أردنا من علم الاجتماع المعنى الأول أو الثانى، فإن العرب لهم فيه القدح المعلى، فكتب الرحلات والخطط مليئة بذكر أحوال الأمم، ووصف معايشها وعاداتها وطرائفها في ذلك.

وأشهر من كتب في هذا الميدان المسعودى، في كتاب «مروج الذهب» اذ شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده، وذكر نحلهم وعوائدهم، وتعرض لكثير من طرائفهم.

وابن حوقل الذى يقول: إنه وصف أقاليم البلدان، وبين الغامر منها والعامر، ومالها من قوانين، ووجوه الأموال والجبايات والمجالب والتجارات؛ وأبو الريحان البيرونى صاحب كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة «وقد برز البيرونى كأكبر شخصية علمية إبان النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، إلي حد أن اطلق جورج سارطون– وهو مؤرخ تاريخ العلوم الشهير– على النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى اسم «عصر البيرونى»وقد انتهى البيرونى من تأليف كتابه عام ٤٢٣هـ– ١٠٣١م. ويعد الكتاب وثيقة تاريخية اثنوجرافية؛ حيث إنّ البيرونى لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب بل درس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها، ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها،وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على ماشاهده بنفسه وسمعه بأذنيه أكثرمما يعتمد على ماقرأه.

ووصف ابن بطوطة في رحلته الشهيرة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»ماشاهده من أحوال الشعوب التى زارها وعاداتهم.

وعبدالرحمن بن خلدون في مقدمته الشهيرة، أربى على الغاية في عوامل تكوين الجماعات وتطورها ومايعتريها من عوامل القوة والضعف، والبقاء والانحلال، وقد سبق أوربا في كثير مما عرفته في العصر الحديث من نظريات، ومن ثم كان هو المؤسس لعلم الاجتماع.

يقول الأستاذ (ت. ج دي بوى) الأستاذ بجامعة أمستردام. وصاحب كتاب «تاريخ الفلسفة في الاسلام»: إن المؤرخين القدماء لم يورثونا التاريخ علما من العلوم، يقوم على أساس فلسفى، فمثلا كانوا يعللون لعدم بلوغ الانسانية منذ زمان بعيد درجة أعلى مما بلغته في المدينة بالاستناد الى حوادث أولية كالزلازل والطوفان ونحوها، ومن جهة اخرى كانت الفلسفة المسيحية تعتبر التاريخ بوقائعه تحقيقا أو تمهيدا لمملكة الله على الأرض، ثم جاء ابن خلدون فكان أول من حاول أن يربط بين تطور الاجتماع الانسانى وعلله القريبة،مع حسن الادراك لمسائل البحث وتقديرها مؤيدة بالأدلة المقنعة، فقد نظر فى أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب، وعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمى والعقلى في الانسان والمجتمع».

وقال الأستاذ «فارد» الأمريكى في كتاب «علم الاجتماع النظرى» «كانوا يظنون أن أول من قال وبشر بالحتمية في الحياة الاجتماعية هو «مونتسكيو» أو «فيكو» في حين أن ابن خلدون كان قد قال ذلك، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة». وقال أرنولد توينبى في كتاب «دراسة في التاريخ»: «ابن

خلدون من العباقرة، وفي مقدمته دلائل ساطعة على سعة النظر، وعمق البحث، وقوة التفكير؛ ثم يقول وهو في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور، وأنشأ فلسفة التاريخ، وهو بلا شك أعظم عمل من نوعه،خلفه أى عقل في أى زمان ومكان ».

١٤- في الاختراعات :

لقد سبق العرب غيرهم إلى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البارزة الخاصة بالعميان، اخترعها على بن أحمد بن يوسف بن الخضر المشهور بزين الدين الآمدى (ت ٧١٤هـ/ ١٣١٤م) وكان قد فقد بصره فى أول عمره، فكان كلما اشترى كتابا لخزانة كتبه لف ورقة على شكل حرف من الحروف،ولصقها في الكتاب، وكانت هذه الحروف هي التي يستعين بها على معرفة ثمن الكتاب(١).

وسبقت العرب الأوربيين إلى الطيران، وقد حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس،وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف بها الأوقات على غير مثال، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر أنه حقيقة(٢).

وسبقت العرب إلى معرفة الطباعة فألف أبوبكر القدسى

---

(١) الأعلام: ٤/ ٢٥٧ وفي المجلد السادس من مجلة « المقتبس » بحث لأحمد زكى باشا قال فيه: إن زين الدين الآمدى سبق « برايل Louis Braille إلى اختراع طريقته في الكتابة بنحو ستمائة سنة، لأن برايل الفرنسي اخترع طريقته في نحو سنة ١٨٥٠م.

(٢) المقتبس لابن حيان ١٤٤، والمغرب في حلى المغرب ٣٣٣. وفي مجلة المقتبس ٦: ١٦٥ بحث لأحمد تيمور باشا قال فيه: « لا يغض من اختراع ابن فرناس- الطيران- تقصيره فيه عن الشأو البعيد، فذاك شأن كل مشروع في بدايته ».

الأندلسي كتابا في الخواص وصنعة الامدة وآلة الطبع غريب في معناه، وكان عبدالرحمن بن بدر من وزراء الناصر ومن أهل المئة الرابعة، « ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه »، أى أن الأندلسيين عرفوا الطبع لا بالحروف قبل مخترعه المشهور « جوتنبرج » الألمانى بأربعمائة سنة.

وقال المؤرخ جوتيه: إن العرب عرفوا طريقة عمل التجليد الصناعى ولم تعرف أوربا سر هذه الصناعة إلا في النصف الأول من القرن السادس عشر، وأدخلوا على أوربا الورق المعمول من القطن والورق الرخيص الثمن؛ وكان الناس من قبل يكتبون على البردى وهو غال جدا، وكانت معامل « شاطبة » في أسبانيا تصدر بضاعة الورق إلى أوربا الغربية، بينما كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة، على مايشهد لذلك اسم الورق الدمشقى « شارتا داماسينا » صنع الورق من الحرير في سنة ٦٥٠م في سمرقند وفارس، ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦م الحرير بالقطن ومنه الورق الدمشقى على ماذكره مؤرخو اليونان.

ولقد أقام الوزير الفضل بن يحيى البرمكى الصناعة الأولى للورق في بغداد سنة (١٧٨هـ/ ٧٩٤م) وكذلك انتشرت صنعة الوراقة في مصر في عهد الفاطميين وكانت تشمل صنع الورق ونسخ الكتب وتجليدها، وانتشرت في مصر محلات الوراقين وكان ورق مصر يعرف بالمنصورى كذلك أقيمت مصانع للورق على مثال

مصانع سمرقند في دمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس بالشام[١].

ونهض العرب في فارس والأندلس وصقلية وأفريقية لاستثمار المعادن يستخرجونها من مناجمها، ويحسنون تطريقها والانتفاع بها، واستخرج الأندلسيون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب؛ واستثمر العرب المناجم فاستخرجوا الحديد في خراسان، والرصاص في كرمان، والقار والنفط وطينة الأوانى الصينية ورخام طوريس؛ والعرب أول من استعمال الحمام الزاجل في خدمة البريد ونقله وبخاصة الأخبار السرية،ومن ثم اقتبس الصليبيون هذا النظام وأدخلوه أوربا.

تقول الدكتورة « سيجريد هونكة » إن أوربا تدين بالفضل للعرب بل للشرق بمعرفة النباتات المفيدة للطعام مثل الخيار والقرع والخرشوف والسبانخ والبطيخ والشمام والليمون والخوخ... وأخذت أوربا عن العرب طرق الرى حيث كان العرب ماهرين في هذا الفن منذ أقدم العصور.

حتى النظافة والاستحمام وغسل الثياب واستعمال العطور والزينة قد أخذتها أوربا عن المسلمين. تقول الدكتورة « سيجريد هونكة » وهناك عادة هامة بالنسبة للعربى احتفظ بها الأوربى ألا وهي عادة الاستحمام؛ اذ إنه لما زار الطرطوشى[٢] بلاد الفرنج ولاحظ ماهم عليه في هذا، قال إنه لم يشاهد في حياته أقذر منهم لا

---

(١) سيجريد هونكة: فضل العرب على أوربا ترجمة فؤاد حسنين، ص ٢٩-٣٥.

(٢) الطرطوشى: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهرى الأندلسى (٤٥١- ٥٢٠هـ/ ١٠٥٩- ١١٢٦م) أديب، من فقهاء المالكية من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس.من كتبه:سراج الملوك، و« التعليقة » في الخلافيات. (الأعلام ٧: ١٣٤).

يغتسلون الا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد، أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن لبسوها لكيلا تتمزق. ولما اندلعت نيران الحروب الصليبية وأقبل الصليبيون على الشرق فشاهدوا الحمامات في كل مكان، وحرص المسلمين على الاستحمام والتطهر والتنظيف عند كل صلاة وأدركوا أثر الحمامات بما فيها من وسائل الراحة والنظافة، فهاموا بها كما هام أولئك الغربيون الذين شاهدوها في أسبانيا وصقلية فألحوا جميعهم في ادخالها إلى أوربا رغما من المعارضات الشديدة.

وفضل العرب على المرأة وزينتها وأناقتها واضح فشهرة الشرق في البخور والعطور واعدادها قديمة جدا. وكان الرجال المسلمون اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام يتزينون باطلاق اللحية فاقتبس ذلك الصليبيون أيضا وأصبحت عادة مستحبة عند الغربيين.

١٥ – في الفنون والمعارف الصناعية :

اقتبس الغرب أصول في عمارته عن العرب، ويتجلى في أسبانيا على الخصوص تأثير العرب المعمارى العظيم(١) وفي مدينة واست في شمال فرنسا بوابة نقلت زخرفة عقودها عن بوابة الفتوح بالقاهرة؛ وكذلك الحال في بوابتى باريه له مونيال «وشارليو» في أواسط فرنسا فان الناظر اليهما يهيىء اليه أنه أمام بوابة في المدن المغربية الاسلامية، وقد تأثرت العمارة الأوربية في العصور الوسطى تأثرا بالغا بالتقاليد المعمارية الاسلامية العربية؛ وكانت أولى المناطق التي ظهرت فيها قوة هذا التأثير هي شمال أسبانيا منذ أوائل القرن الرابع

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥٧٢– ٥٧٤.

الهجرى في مقاطعات ليون وقشتالة.

وقد أجمع الباحثون على أن معظم ماابتكرته قرطبة في فن العمارة، هي طريقة عمل الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة، وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية في العمارة، وهي عمل الأسقف، وذلك بالطريقة نفسها التي اتبعت في العمارة القوطية في أوربا بعد ذلك بقرنين من الزمان.

واحتل الخط الكوفى مكانة ممتازة بين الموضوعات الزخرفية العربية وقد عبرمظهره البديع وجماله الفنى أنظار العرب والمسلمين وشاركهم الأوربيون في ذلك مشاركة لا تقتصرعلى امتاع النظر بل في متابعة تطوره واقتباس ما اوجبه هذا التطور من روح فنية ترتكز على التناسق في التكراروالاتزان في التماثيل.

وكانت الفكرة الزخرفية هي وحدها التي أوحت إلى الفنان الأوربى منذ القرن الرابع الهجرى فكرة الاقتباس من حروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة في الكنائس وعلى عقود بواباتها أو بالتصوير على صفحات الانجيل ولوحات القديسين.

والأمثلة على ذلك عديدة نجدها في اليونان على لوحة رخامية من احدى الآثار البيزنطية في أثينا؛ وفي بلدة «كالمانا» باليونان توجد كنيسة للقديس خرالمبوس وبها زخارف كوفية بديعة؛ وفي ايطاليا توجد زخرفة جميلة بالخط الكوفى المورق على باب مقبرة مدينة كانوسا.

وفي أسبانيا تعددت الأشكال وتنوعت فعلى افريز مذبح من كنيسة أوفيدو Oviedo حاول النحات أن ينقل عليه البسملة كاملة.

وفي فرنسا نجد الكتابة الكوفية مسجلة في كنائس عدة من بينها كاتدرائية بوردو وكنيسة القديس بطرس في ريد وكاتدرائية البوى في وسط فرنسا وقد بنيت في الربع الثاني من القرن السادس الهجرى، وتظهر هذه الكاتدرائية بمجموعة قبابها وتصميم مقرنصاتها كأنها بناء اسلامي عربي المظهر والتكوين.

وقد انتشرت في أسواق أوربا التحف الفنية من خزف وفخار وزجاج وخشب وعاج ومعدن والأباريق والصحون والمشكاوات والمسارج والمباخر والمقاصير ولقيت رواجا كبيرا وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء حتى رجال الدين فأثارت الغيرة عند الصناع الأوربيين وحفزتهم على محاولة محاكاتها سواء من حيث أساليب الصناعة أو طرز الزخرفة.

والذى لا شك فيه أن وفرة استيراد أوربا للتحف الاسلامية من مختلف المواد ومنذ بداية الحروب الصليبية قد تفتح الطريق أمام تطور الفنون والصناعات الأوربية تطورا كان من نتيجته نموها نموا باهرا بحيث أصبح انتاج التحف الفنية من مقتضيات عصرالنهضة الأوربية؛ ولقد اشتهرت مدينة بلنسية بصناعة الخزف ذا البريق المعدنى الذى امتازت به صناعة الخزف العربى، كذلك اشتهرت به مالقة، وكانت شهرة خزف مدينة بلنسية[١] قد جعلت كبار الأمراء فى ايطاليا وفرنسا يوصون مصانع المدينة بصنع أوان خاصة بهم تحمل أسماءهم وشعاراتهم، واشهر نموذج لصناعة الخزف المطلى

---

(١) هـ. كريستى: تراث الاسلام، ص ١٢٦.

A. h. christie: The Logacy of Islam. P. 126

بالميناء الاسلامية هو الاناء الذى وجد في قصر الحمراء والذى يبلغ ارتفاعه متر و٣٥ سم ويظهر فيه الابداع الاسلامي[١].

ومن أسبانيا اقتبس الايطاليون أسلوب الخزف المعدنى البراق ونشأت في مدينة جوبيو Jubbio مصانع نهضت بهذه الصناعة نهوضا كبيرا؛ كذلك قلد الخزافون الايطاليون صناعة الخزف الاسلامي بطريقة الرسم بالحفر وكانت هذه بداية لاشتقاقات أخرى من أساليب صناعة الخزف عند المسلمين عاونت معاونة كبيرة على ازدهار هذه الصناعة في عصر النهضة الأوربى.

وقد ذاعت في أوربا العصور الوسطى شهرة المنسوجات الاسلامية ودور الطراز التي كانت منتشرة في البلاد الاسلامية العربية والتي كانت تنتج من المنسوجات أنواعا فاخرة متموجة الألوان أو منقوشة بخيوط الذهب والفضة.

وأخذت مصانع النسيج فى أوربا تعمل على تقليد المنسوجات الحريرية الفاخرة وكان هذا التقليد نتيجة مصادر ثلاثة: أولها مصدر مباشر نتيجة استيراد الملوك والأمراء للأقمشة الفاخرة من بلاد الشرق الاسلامي، وثانيها ناشيء عن استمرار المراكز الصناعية الاسلامية في انتاجها فترة طويلة من الزمن وفقا للتقاليد الاسلامية بعد خضوعها للحكم المسيحى في الأندلس وخاصة في صقلية التي كان تأثيرها كبيرا على المدن الايطالية ومصانع النسيج فيها وثالثها مصدر غير مباشر استتبع تأثر المصانع البيزنطية بالأساليب الاسلامية وانتاجها أقمشة تحمل الطابع العربى والتى راجت رواجا كبيرا في أوربا.

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥١٧.

ومن الأمثلة البارزة على التأثيرات العربية في مجال النسيج تلك العباءة التي نسجت في صقلية للملك روجر الثاني (في سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م) أى بعد انقطاع الحكم الاسلامي في الجزيرة، وقد نسجت هذه العباءة خصيصا لكى يرتديها الملك في حفل تتويجه، وهي محفوظة حاليا في متحف فينا، وزخارفها مشتقة من الزخارف العربية، فضلا عن أنه نسجت عليها كتابة باللغة العربية سجل فيها تاريخها الهجرى وعبارات التبجيل والدعاء للملك وفقا للتقاليد الاسلامية.

وعرفت أوربا الحرير «الأطلس» وسمته Atlas عن العربية،وكذلك عرفت نوعا من القماش العربى يصنع من شعر الماعز اسمه «مخبر» فسمته Mohair عن العربية أيضا والخميل Gamlet وغير ذلك[١].

ولم يختصر أثر العرب علي تزويدأوربا بأفخر أنواع الأقمشة وإنما تعداه إلى التأثير على طريقة الحياة ذاتها، فيقول العلامة درابر[٢]: إن أوربا لتدين للعرب بكثير من وسائل الرفاهية التي اكتسبتها عنهم، لقد علمونا فائدة المداومة على تغيير الملابس الداخلية القطنية والكتانية وغسلها، وهي لا تزال تستعملها نساؤنا بأسمائها العربية حتى الآن، ومن أمثلة ذلك قميص Gamice وجوبه Jupe.

---

(١) معجم اكسفورد اللغوي التاريخى.

A. New English Dictionary on Historical Principles: oxford

(٢) جون درابز: تطور أوربا الفكرى: ٢/ ٣٣.

أما السجاد وهو الآن ضرورة لا غناء عنها، فأتى إلى أوربا عن طريق الشرق باعتباره من كماليات الموسرين الذين يتذوقون الأشياء الجيدة، وقد اتخذه الأوربيون في بادىء الأمر تحفا تكتنز أكثر من اتخاذهم له سجادا يفترش للاستفادة منه،وتعلم الصناع الأوربيون من المسلمين كيفية نسج السجاد المخمل (ذو الوبر)[١].

وعن طريق العرب أيضا عرفت أوربا المرايا الزجاجية ذات الغشاء المعدنى واستغنت بها عن المرايا التي كانت تصنعها من البرنز أو الحديد المصقول[٢].

---

(١) أ. هـ. كريستى : تراث الاسلام، ص ١٣٧-١٣٩ .

(٢) اول ديورانت : قصة الحضارة ٤ /٦١٣ .

الفصل الثالث

- الثقافة الاسلامية فى الناحية التشريعية .

- بين الماضى والمستقبل .

الثقافة الإسلامية في الناحية التشريعية

التشريع الإسلامى تشريع متكامل ينظم جميع نواحى الحياة الروحية والمادية ووضع لكل واقعة أيا كان نوعها حكما إما بالنص عليه أو بوضع الأمارات والدلائل التي ترشد المجتهدين اليه، فلم يكن التشريع الاسلامي قاصرا على النواحى الروحية معرضا عن الحقوق المادية والأدبية،ولم يكن تشريعا خاصا بأمة، بل هو دين عام لجميع البشر لا يختص به شعب دون شعب، وهو باق خالد لا ينسخ مدى العصور، يفسح المجال للترقى العقلى والعلمى دون حدود، وللرقى المادى والصناعى ضمن حدود الأخلاق؛ وهو فطرى في أخلاقه،مرن في تشريعه مع ثبات اتجاهاته وقواعده العامة، وأسسه، حتى الدخول فيه لايحتاج إلى شعائر وطقوس؛ فكل تفكير وتصرف يوافق القرآن والسنة تفكير مشروع؛ للناس أن يعملوا به مادام في المصلحة العامة والخاصة.

والباحث في التشريع الاسلامى يدرك للنظرة الأولى أن الأحكام التى شرعت للعبادات كانت مفصلة محددة محررة؛ فهى تتناول الجزئيات تناولا مبينا في الوضوء والتيمم والحيض والنفاس والصيام والاحرام وما إلى ذلك من الشؤون التعبدية هذا التفصيل الواسع النطاق، الرحب الآفاق، لا تراه ولا تلمسه في المعاملات والدستوريات، والاقتصاديات، والأحكام المدنية والجنائية والسياسية، فقد اكتفى القرآن والسنة هنا، برسم الخطوط العريضة والكليات العامة، وتركا التفصيلات والتطبيقات للناس يجيلون فيها عقولهم بما يوافق مصالحهم ويكفل حاجياتهم.

فالعبادات لا مجال للعقول فيها، لأنها فرائض مفروضة من الله تعالى لا تزول ولا تتغير بالزمان والمكان، أما التشريع الذى يوجه الحياة،ومصالحها ويحكم في قضاياها وشؤونها، ويمشى مع الناس فيما يضطربون فيه ويتعاملون، فمن حق الناس أن يكون لعقولهم فيه مجال وتفصيل وبيان، ومن بين سنن الخلود والبقاء أن يكون مرنا متطورا مع المد الحضارى والخطو البشرى.

ولقد كان للفقه الاسلامى أمران معجزان مستمدان من الشريعة؛

أولهما: أن الفقه الاسلامي ينتصر وإن لم تنتشر اللغة العربية كمثل ماساد الفقه الاسلامي بالمذهب الشافعى في أندونيسيا وغلب الفقه الحنفى الهند وباكستان وغيرهما من بلدان لا تتكلم العربية.

وثانيهما: أن العقيدة الاسلامية تنتصر وإن انهزم المسلمون كما غلب السلاجقة المسلمين في القرن الحادى عشر ،لكنهم أسلموا وغلب المغول المسلمين في القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا.

فالفقه الاسلامى في المعاملات أو العبادات أغنى كنوز الحضارة الاسلامية، وأبعدها أثرا في الأمة جيلا بعد جيل، لاتصاله بالقرآن والحديث في منابعهما الأولى، فهو الذى مكن للحضارة الاسلامية من البقاء بالهند والصين وروسيا وتركيا وأفريقية وأوربا وآسيا؛ وسيطرت مبادئه على نظام الأسرة، والملكية وحرية العقيدة، والأصول العامة للشريعة.

لقد هيأ هذا الفقه للعالم العربى أن يحمل رسالته في استبقاء شعلة الحضارة في عنفوانها أربعة عشر قرنا؛ فنقلت حضارة الأقدمين إلى المتأخرين، ووصلت طرفى التاريخ قديمة وحديثة، ونهلت من

حضارة أمته كل الشعوب، ولم يتعطل يوما واحدا عن التطبيق على وجه الأرض.

ولقد ساد الفقه العلوم العربية جميعا وتصدرها، لأن الحضارة الاسلامية كانت تهتف بها غريزتها، لتخليد ذاتها بالعلم، وكان للفقه منه أعلى مكان؛ اذ تمتزج فيه المثل العليا بما ينفع الناس، ويمكن الأمة أن تتطور، وتتشكل على اساس من العدالة والمشروعية؛ وقد شهد للفقه الاسلامى وأصالته وقوته وصلاحيته فطاحل العلماء في أوربا من غير المسلمين فقد عقدت عدة مؤتمرات دولية بحث فيها الفقه الاسلامى ودرست بعض نظرياته؛ وفى المؤتمر الدولى للقانون المقارن المنعقد في مدينة «لاهاى» سنة ۲۹۳۲ يعلن الأستاذ «لامبيير» Monsieur Lambert الفقيه الفرنسي الكبير تقديره العظيم للفقه الاسلامى؛ وأصدر المؤتمر قرارا إجماعيا بالآتى:

(أ) اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام «القانون المقارن».

(ب) اعتبارالشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور.

(جـ) اعتبار الشريعة الاسلامية قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها.

وكذلك فإن مؤتمر المحامين الدولى المنعقد في «لاهاى» سنة ١٩٤٨ والذى اشترك فيه ثلاث وخمسون دولة جاءت قراراته معترفة بدورها بما في التشريع الإسلامى من مرونة وأهمية، موصية اتحاد المحامين الدولى بأن يقوم بتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع والتشجيع عليها؛ بل إن أساتذة القانون فى العالم– وقد ألفوا جمعية

لهم- لم يجدوا من يسندون إليه الرئاسة الشرفية لجمعيتهم الا الفقيه الحنفى محمد بن الحسن (١٣٢ / ١٨٩هـ) واعتبروه أبا للمشتغلين بالقانون الدولى في العالم أجمع وألفوا باسمه جمعيه خاصة تبحث ماكتبه وقالوا عنه[١]: «إنه خليق بأن يأخذ مكانه الحق بين رواد القانون الدولى العالميين» وفي سنة ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث في الفقه الاسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم «اسبوع الفقه الاسلامى» ودعت إليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون في الدول الغربية والاسلامية، وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية، حددها مكتب المجمع الدولى للقانون المقارن وهى:

١- اثبات الملكية.

٢- المسؤولية الجنائية.

٣- الاستمساك بالمصلحة العامة.

٤- تأثير المذاهب الاجتماعية بعضها في بعض.

٥- نظرية الربا في الاسلام.

وخلال المحاضرات وقف نقيب المحامين في باريس فقال: «أنا لا أعرف كيف أوفق بين ماكان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى، وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفي بحاجيات المجتمع العصرى المتطور، وبين مانسمعه الآن فى المحاضرات ومناقشاتها، مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادىء»، كما وقف غيره من رجال القانون الفرنسى، ورجال الاستشراق، وأشادوا

---

(١) من نشرة سكرتارية هذه الجمعية للمعاهد التعليمية في العالم.

بالفقه الاسلامى، وأنه صالح لجميع الأزمنة والأمكنة.

وفي ختام المؤتمر، وضع المؤتمرون بالاجماع القرار الآتى:

« .... نظرا لما ثبت للمؤتمرين من الفائدة المحققة التى أتاحتها المباحث التى عرضت في خلال أسبوع «الفقه الاسلامى» ومادار حول هذه المباحث من مناقشات أثبتت بجلاء أن الفقه الاسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها، وأن اختلاف المبادىء في هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية، وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التي تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة، فإن أعضاء المؤتمر يعلنون رغبتهم في أن يظل أسبوع الفقه الاسلامى يتابع أعماله سنة فسنة»، لقد أعلن رجال المؤتمر- وهم أئمة التشريع العالمى وصفوة رجاله- هذه الوثيقة التي تشع تقديرا واكبارا للتشريع الاسلامى الذى يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة المتطورة؛ ورغبوا في أن يظل أسبوع الفقه الاسلامى يتابع اعماله سنة فسنة، ليقدم إلي الانسانية تلك الثروة الفذة من الأنظمة الدستورية والتشريعية والاقتصادية.

إن تفوق التشريع الاسلامى على النظم العالمية أصبح حقيقة علمية مقررة لدى رجال القانون والفقه الدولى، يقول الدكتور على بدوى عميد كلية الحقوق السابق[1] بعد مقارنة الشريعتين الإسلامية والرومانية، وهى المصدر الأول لكل تشريع أوربى.

«إن القانون الرومانى يقوم على الشكلية التي تتطلب اجراءات

(١) مجلة القانون والاقتصاد، العدد الخامس من السنة الأولى.

رسمية، وطقوسا معينة، هى المحور في جميع نظمه،على حين أن الشريعة الاسلامية تقوم على التجرد من الشكليات والبساطة في التعامل،ونية الفريقين في التعاقد وعلى روح العدالة الفطرية بين الناس ».

ويقول الدكتور توفيق شحاته[1]: « ... واذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظم القانونية،وجدنا التشريع الاسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقدير المبادىء العظيمة، ومنها مبدأ انتقال الملكية بمجرد الاتفاق، ومبدأ سلطان الارادة،ومبدأ النيابة التعاقدية.

ويقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة[2]: «إن الشريعة بنيت أحكامها على المساواة بين الأجناس وبين الناس في كل أحكامها، فلا فرق بين أبيض وأسود، ولا عربى وأعجمى، ولا ملون وغير ملون.

بينما قانون الرومان أول خواصه أنه للرومان وأن مافيه من حقوق لا تكون الا للرومان، ومافيه من واجبات تكون على الجميع.

وأن الإسلام يسوى في أحكامه الانسانية بين الرجل والمرأة، الا مايوجبه النظام الاجتماعى من تفرقة جزئية ليست بكلية، فالإسلام يعترف للمرأة بالشخصية الانسانية الكاملة، فلها الولاية على مالها، ولها الولاية على نفسها في حدود، لمصلحة المجتمع؛ بينما القانون الرومانى كان لا يعترف للمرأة بالشخصية الكاملة، ولا الشخصية الناقصة، فهى أمة في بيت أبيها، ثم تصير أمة في بيت زوجها.

---

(١) توفيق شحاته: النظرية العامة للالتزامات في الشريعة الجزء الأول، ص٢٠١

(٢) محمد أبوزهرة: الفقه الاسلامى والقانون الرومانى. القاهرة ١٣٨١هـ، ص٨-٩.

والإسلام يعترف بالولاية الكاملة لكل من بلغ الرشد، وكمل عقله، بينما قانون الرومان لا يعترف للرجل مهما اكتمل في سنه وقوته ورشده بأى حق مادام أبوه على قيد الحياة، فلا ولاية لانسان أبوه حى الا اذا منحه أبوه الولاية، هذا في الوقت الذى تقرر فيه الشريعة أن الولد ولو كان قاصرا ذمته منفصلة عن ذمة أبيه مع بقائه في ولايته».

ويقول الدكتور/ محمد يوسف موسى[1]: «... إن القوانين الأوربية تنظر إلى الفرد باعتباره وحدة، وباعتباره العنصر الأهم في الحياة، لا باعتباره جزءا من المجموعة، وقد ترتب على شيوع هذه الفردية المطلقة التصرف، أن انهار العرف والخلق تحت وطأة الجموح الفردى، وسر روح هذه القوانين، أن الثورة الفرنسية- وهى التى قام على أساسها القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤م- كان هدفها تحرير الفرد مما كان ينوء به من قيود وأثقال في السياسة والقانون والحرية،فجاءت الثورة تقدس الحق الفردى، وبذلك حطمت روح التعاون الاجتماعى وأثرت هذه الروح في القوانين الأوربية كافة. أما الشريعة الاسلامية، فقد منحت الحرية الفردية، ثم قيدتها بمصالح الجماعة ثم يقول: «... فلكل نظام غاية يهدف لها، فالقانون الوضعى غايته استقرار المجتمع الذى وضع له هذا القانون بتنظيمه وبيان حقوق وواجبات كل فرد فيما يختص بعضهم ببعض، وهى غاية نفعية محددة، فالقانون-مثلا- يقضى بسقوط الحق بالتقادم، كما يقضى لمن يضع يده على عقار لمدة خمس

(١) محمد يوسف موسى: الفقه الاسلامى، ص٨١.

عشر سنة بملكيته لهذا العقار، حتى ولو كان غاصبا مجاوزا ماتقتضى به قواعد الأخلاق في هذا الخصوص.

وبذلك يبعد القانون عن قواعد الدين والأخلاق، أما التشريع الاسلامى فشيء آخر، فهو يرعى الفرد والمجتمع، والانسانية عامة، فالمصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، كما يقرر الامام الشاطبى.

فالتشريع الاسلامى وحدة منسقة متماسكة يؤيد بعضها بعضا، يصدر عن روح واعية فاهمة، فالاسلام يحرم المقامرة، فترى هذه الروح سائدة، فيحرم بيع الغرر، وذلك كبيع الطير في الهواء، والسمك في الماء قبل صيده، وبيع ماسينتج من الخضر أو الزرع من هذه الأرض، أو الحيوان الضال، كل ذلك نهى عنه الشارع، لأن فيه مخاطرة أو مقامرة من البائع والمشترى على السواء».

ويقول الدكتور عبدالفتاح عبدالباقى[1]: «إن الجرائم في القوانين يصحبها الجزاء، الا أن هذا الجزاء يكون دنيويا دائما، لأن واضع القانون لا يملك طبعا من أمر الآخرة شيئا، ومن ثم لا جناح على من يستطيع الافلات من هذا الجزاء».

ويعقب الدكتور محمد يوسف موسى[2] فيقول: «أما القانون السماوى -وهو في أسمى صوره الفقه الاسلامى- فعلى غير ذلك فيما يختص بالجزاء، إنه يثيب ويعاقب في هذه الحياة وفي الدار الآخرة أيضا، والجزاء الأخروى أعظم دائما من الجزاء الدنيوى، ومن أجل

---

(١) عبدالفتاح عبدالباقى: نظرية القانون، ص١٦ - ١٧.

(٢) محمد يوسف: الفقه الاسلامي، ص٦٩

ذلك يحس المؤمن بوازع نفسى قوى بضرورة العمل بأحكامه،واتباع أوامره ونواهيه،ولو أمكنه التفلت من الجزاء فى هذه الدنيا، وليس كهذا باعثا على اتباع التشريعات التي تستند إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والتشريع الذى يستند اليه الدين هكذا يقصد صلاح الفرد والمجتمع،وهذه غاية نفعية بلا ريب، بيد أنه يريد بناء مجتمع مثالى نقى، مما لا ينافى الدين والأخلاق، ولذلك لا يمكن أن يقر شيئا ينافى شيئا منهما،كما أنه لا يقصد فقط الى بناء مجتمع سليم، بل إلى سعادة الفرد والمجتمع والبشرية كلها في هذا الدار وفي الدار الأخرى أيضا، كما يهدف إلى احسان قيام الانسان بواجبه نحو نفسه وإخوانه في الانسانية،ونحو الله تعالى بعبادته حق عبادته . . » .

وفقهاء المسلمين، بما عرف عنهم من عمق البحث واتساع نطاقه، تناولوا بالدراسة تنظيم علاقة الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول؛ ويتعرض كتاب الخراج لأبى يوسف، وكتاب « الجهاد » للطبرى لمسائل تدخل في نطاق القانون الدولى، وينفرد كتاب « السير الكبير » لمحمد بن الحسن الشيبانى، بتخصصه في شرح القواعد التى تنظم العلاقات الدولية في الاسلام في زمن الحرب، فهو يتضمن كل أصول الحرب وأحكامها، وقد سبق به الشيبانى جهابذة القانون الدولى الغربيين، مثل جروسيوس Gortius ، وفيتوريا Vittoria، وسريز Saury

وقواعد القانون الدولى في الاسلام، مستقاه من آيات الله

البينات، وسنة رسوله عليه السلام، فأول مصادرها: الكتاب الكريم، ثم السنة المطهرة، دون أن نغفل أهمية المعاهدات التي عقدها الخلفاء، والأوامر والوصايا التى كانوا يبعثون بها إلى أمراء الجيوش، وكذلك اجماع الفقهاء، باعتبارها مصادر مكملة فاذا استعملنا التعبيرات التي يعرفها القانون الدولى المعاصر، أمكننا أن نقول إن مصادر القانون الدولى في الاسلام هى:

أولا: السلطة:

ونقصد بها سلطة العقيدة باعتبارها مصدر الالتزام بالقواعد التى وردت في الكتاب والسنة.

ثانيا: المعاهدات والمواثيق:

التي تبرم بين الدولة الاسلامية وبين غيرها من الدول.

ثالثا: الفقه:

ويندرج تحته، الفتاوى والتعليقات، والآراء المستنبطة بالاجتهاد أو القياس.

رابعا: العرف:

وهو في القانون الدولى الوضعى، من أكبر المصادر وأغزرها،مع أنه في الاسلام مصدر ثانوى، الا أن له أهميته وقيمته.

وتضفى طبيعة الدعوة الإسلامية، صبغة خاصة على القانون الدولى، بحيث يبتعد مفهومه، بعض الشيء، عن القانون الدولى بمعناه المعروف، فالقانون الدولى- كما يعرفه رجال القانون- هو قواعد تنظيم العلاقة بين مجموعة من الدول، في الحرب وفي السلم،

بين مجموعة من الدول المستقلة، المكتملة السيادة التي تترابط عرفا أو اتفاقا على قدم المساواة، وعلى أساس التبادل المطلق، وهو يقوم على مبدأ الاقليمية فينبسط سلطان الدولة– بحسب الأصل– على أرضها– ومافوقها، وماتحتها،دون أن يمتد إلي ماوراء ذلك.

هذا المفهوم، لا تعرفه الشريعة الإسلامية، اذ إن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تقوم على اعتبار شخصى انساني، أكثر من أى اعتبار اقليمى، اذ لا يتصور بالنسبة لها أن تكون الحدود الاقليمية عامل تفرقة بين الدول المسلمة، ويوجب الاسلام على أتباعه الدعوة إليه، والغاية الكبرى من ذلك، هو أن يعم ربوع الأرض جميعا، حتى يسود السلام. وتعلو كلمة الله تعالى.

أخذ الاسلام بمبدأ التبادل، وطبقه تطبيقا كاملا، معطيا بذلك أحسن المثل للدول الحديثة. قال اللهتعالى: ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم. واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ «سورة البقرة: الآية ١٩٤».

يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية[١]: (إن الله قد بين قاعدة عظيمة، معقولة، وهى أن الحرمات، أى مايجب احترامه، والمحافظة عليه، يجب أن يجرى فيه القصاص والمساواة، وقد استدل الامام الشافعى، بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ماقتل به، بأن يذبح اذا ذبح ويخنق اذا خنق، ويغرق اذا أغرق،وهكذا مثل ذلك في النصب والاتلاف،والقصد أن يكون الجزاء على قدر

(١) تفسير المنار: جـ٢، ص٢١٢ومابعدها.

الاعتداء بلا حيف، ولا ظلم».

وأزيد على هذا، ماهو أولى بالمقام، وهو المماثلة في قتال الأعداء، كقتل المجرمين بلا ضعف ولا تقصير، فالقاتل بالمدافع والقذائف النارية أو الغازية السامة، يجب أن يقاتل بها، وهذه الشروط والآداب لا توجد الا فى الإسلام، وكذلك قال الله تعالى: بعد شرح القصاص والمماثلة «واتقوا الله» فلا تعتدوا على أحد،ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الايذاء».

الإسلام: كما تدل عليه تسميته، دين أمن وسلام، يقوم على أساس الود والتسامح، لا يجيز الحرب الا في حالات خاصة محدودة، بحيث تعتبر فيما عداها جريمة، تسبق في ذلك المألوف في الدول الغربية بأحقاب طويلة.

كتب الأستاذ هاك S.A. Haque في كتيب،نشر في لاهور بالهند، عام ١٩٣٢، عن مساهمة الإسلام في السلام العالمى، يقول: «إن الأمم تبذل الكثير من الجهود، وتعقد المؤمرات، لمنع التسليح ومنع الحروب، أو للتقليل من فرص اعلانها، ولكن جهودها باءت جميعا بالفشل، وذلك لأن الدول، اذ تتعهد لا تقيد نفسها بالمعاهدة إلا حين تنعدم عندها الوسيلة لنقضها،حتى اذا ماتوفرت عندها القوة الكافية لذلك، أعلنت أن المعاهدة التي أبرمتها، وارتبطت ببنودها، حبرعلى ورق، ويقدم لنا التاريخ الكثير من الأمثلة على ذلك.

ولو طبقت أحكام الاسلام، فيما يتعلق بالحروب والجهاد،تطبيقا كاملا، لوجد العالم فيها جنته التي يبحث عنها بدلا

من الجحيم الذى هو مسوق اليه. ليطع كل منا دعوة الله تعالى التي يقول فيها: ﴿ **كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ «سورة البقرة الآية ٦٠».

انتشر الاسلام بالدعوة، ولم يعتمد على القوة، يقول الله تعالى: ﴿ **لا إكراه فى الدين. قد تبين الرشد من الغيِّ** ﴾ «سورة البقرة: ٢٥٦».

يقول الامام الفخر الرازى في «مفاتيح الغيب» تفسيرا لهذه الآية الكريمة: «إنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة، قال بعد ذلك: انه لم يبق بعد ايضاح هذه الدلائل، عذر للكافر، في الاقامة على كفره، الا أن يقسر على الايمان، ويجبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا، التي هي دار الابتلاء، اذ إن في القهر والأكراه على الدين، بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ «سورة يونس: ٩٩».

وقد استقر الرأى في الإسلام، من أن الكفر وحده، ليس سببا كافيا للقتال فلا يجوز قتال الرهبان، والنساء، وغيرهم ممن لا يد له في القتال، فقد جاء في صحيح مسلم عن بريدة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «أغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع».

ولو كان القتال للحمل على الاستجابة إلى الدعوة، وطريقا من

طرق نشرها حتى لا يوجد مخالف في الدين، لما ساغ استثناء هؤلاء، فاستثناؤهم دليل على أن الكفر وحده ليس سببا كافيا للقتال.

وترتيبا على ذلك، فإن علاقة الدول الاسلامية مع غيرها، إنما تبنى في أصولها، علي أساس الود والسلم، باعتبار القاعدة في العلاقات الدولية، وقد تناول الفقه الاسلامى تنظيم التجارة وتبادلها، بين دار السلم ودار الحرب، فالاسلام يشجع على التجارة ويدعو المسلمين إلى أن يسعوا في الأرض.

وقد شجع الاسلام دخول غير المسلمين،دار الاسلام للاتجار فيها، ولغير المسلم الأمان أربعة شهور قابلة للتجديد، اذا لم تنته تجارته خلالها،كما له أن يطلب البقاء في دار الاسلام عاما على أن يدفع الجزية كذمى؛ ويقول السرخسى في «المبسوط» فى أموالهم بعد نشوب الحرب «أموالهم صارت مصونة بحكم الأمان فلا يمكن أخذها بحكم الاباحة، بل إن الاسلام لحرصه على أموال التجار الذين دخلوا بعقد أمان يقرر أن التاجر المستأمن يستمر على ملكه، ولو عاد إلى دار الحرب وحمل السلاح محاربا المسلمين.يقول ابن قدامة في «المغنى»:«اذا دخل حربى دار الاسلام بأمان، فأودع ماله مسلما أو ذميا، أو أقرضهما إياه، ثم عاد إلي الحرب نظرنا فإن دخلها تاجرا أو رسولا أو متنزها، أو لحاجةيقضيها، ثم يعود إلى دار الاسلام فهو على أمانة في نفسه وماله، لأنه لم يخرج عن نية الاقامة بدار الاسلام فأشبه الذمى ذلك اذا دخل لذلك، وإن دخل مستوطنا بطل الأمان في نفسه وبقى ماله، لأنه بدخوله دار الاسلام بأمان يثبت الأمان لماله، فاذا بطل في نفسه بقى في ماله، لاختصاص المبطل

بنفسه، فيختص البطلان به ».

وقد وضع الفقهاء قيدا هاما على تبادل الخدمات بين دار الاسلام ودار الحرب فلا يجوز تصدير المواد الحربية إلي دار الحرب، وإن اختلف الفقهاء في تحديد نطاقها، فاذا خرج التاجر الأجنبى على هذا التحريم، فلا يبطل البيع ولكنه يلزم باعادة بيع مااشتراه من الممنوعات، قبل مغادرته دار الاسلام؛ وقد نصح أبويوسف بأن يضع الامام مسلحات عند حدود دار الاسلام، تقوم بتفتيش التجار الأجانب، وتمنع تهريب المواد الممنوعة،كما لا يجوز للتاجر الأجنبى في دار الاسلام أن يتعامل جهرة، فيما تحرمه الشريعة الاسلامية كالخمر والخنزير.

وأجاز الحنفية، للمسلم دخول دار الحرب للتجارة، وخالفهم في ذلك المالكية، خشية أن يتعرض المسلم للشرك، وقال ابن حزم: إن على الامام ألا يجيز للمسلم دخول دار الحرب، الا للجهاد، أو حمل الرسائل إلى رؤساء الدول، وكما هو الحال في تجارة الأجنبى في دار الاسلام، يمتنع على المسلم أن يتاجر فيما هو ممنوع، أو أن يتعامل بالربا،كما يمتنع عليه أن يتاجر في الضار من النبات أو الحيوان، أو أن يحمل إلي دار الحرب مايكون فيه تقويتها من الناحية الحربية، فالصلة قائمة اذن بين المسلم وغير المسلم سواء أقام هذا الأخير في دار الاسلام أم فى داره، فقال صاحب البدائع: « ويسكنون في أمصار المسلمين. يبيعون ويشترون، لأن عقد الذمة شرع ليكون وسيلة إلى اسلامهم، وتمكينهم من المقام في أمصار المسلمين أبلغ فى هذا المقصود.وفيه أيضا منفعة للمسلمين بالبيع والشراء ».

سبق الاسلام أحدث ماابتكره العقل البشرى من قواعد التفاهم الدبلوماسى، فالسياسة يدعون هذه الأيام إلي التعايش السلمى؛ ومعنى ذلك أن تتعايش المذاهب السياسية والاجتماعية في سلام وحسن جوار، وهم يقولون في ذلك كثيرا،ويحققون منه قليلا، فأما الاسلام فلم يدع إلى التعايش السلمى بين المسلمين وغير المسلمين فحسب، بل دعا إلى مافوق ذلك من التعايش الوادى، الذي يتجاوز المسالمة إلى المودة والمصاهرة والاشتراك في القرابات والدماء.

وسبق آخر،نسجله في القطاع الاجتماعى للاسلام، الذى لن تبلى على الأيام جدته؛ فقد عرف نوعا من الضمان الاجتماعى، يرقى كثيرا عما تعرفه التشريعات الحديثة.

جاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وجعلت لهم (والكلام عن النصارى) أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بين مال المسلمين وعياله مأأقام بدار الهجرة ودار الإسلام؛ فإن خرجوا إلى غير دارالهجرة ودار الاسلام، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم».

وذكر أبويوسف في كتاب «الخراج»: «ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمى يتصدق عليه، ولا من مقعد، والمقعد والزمن اذا كان لهما يسار، أخد منهما، وكذلك الأعمى وكذلك المترهبون والذين فى الديارات، اذا كان لهم يسار أخذ منهم، وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم يؤخذ منهم» والجديد في هذا النوع من

الضمان الاجتماعى، أن الدول الحديثة تمنح الضمان لأهلها، أما الاسلام، فانه يمنح تأمينا اجتماعيا لغير المسلمين، من العاجزين عن الكسب بآفة كالعمى والزمن، أو بسبب جائحة مالية تصيب الرجل فيفتقر بعد غنى، وعلى الحاكم المسلم أن ينظر في أمر المحتاج؛ فاما أن يكتفى باعفائه من ضريبة الدفاع وهي الجزية، واما أن يجرى بعد ذلك عليه رزقا يكفيه وعياله من بيت مال المسلمين.

رأينا فيما سلف من القول، أن القتال ليس أساس العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين حتى يسلموا، وأن التجارة وتبادل المنافع، بل المخالطة والمؤاكلة والمصاهرة، بين المسلمين والكتابيين مشروعة، فالسلام اذن هو الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم؛ وهذا طبيعى في دين لا ينشره أصحابه للتوسع الاقتصادى، دين ينفر من الاستغلال، ويحرم العدوان، ويشرع المساواة بين الناس ويجعل مقياس التفاضل بينهم التقوى والعمل الصالح.

وطبيعى أن يحرص الاسلام على نشر السلام، لأن في ذلك مصلحته، وأن ينفر من الأكراه، لأنه لا يؤدى الى العقيدة الصحيحة، ولأن في الاسلام من الفضائل مايعلن عن نفسه، لو خلى بين الناس وبين النظر إليه في أمن.

الأصل في العلاقة بين المسلم وغير المسلمين، هو المسالمة والمهادنة الا أن يصاب المسلمون بظلم فتحل لهم الحرب دفعاً للظلم وذوداً عن حقوقهم،وليس ذلك الا تطبيقا لفكرة الدفاع الشرعى التى تجعله المواثيق الدولية في كل العهود مبررا لاستعمال القوة.

ومادام القتال لا يحل الا دفعا للظلم، فلا يحل للمسلمين أن يكونوا هم البادئين بالعدوان، وتطبيقا لذلك أحل القتال اذا ماأخرج المسلمون من ديارهم[١] بغير حق، وانتهاك ماعظم من حرمات الله، ومحاولة فتنة المسلمين فيما يدينون؛ ويحدد القرآن الوقت الذى يجب أن يركن فيه المسلمون إلى السلم، ويكون ذلك بتحقيق الغاية من القتال،برفع الظلم، ورد الاعتداء والقضاء على الفتنة[٢].

فاذا ماحل القتال، وتحقق سببه، حرص المشرع الاسلامى على تنظيمه تنظيما عمليا، بما يتفق وتعاليم الاسلام، تنظيما أخلاقيا، يليق بالمسلم الحق.

فأوجب- قبل البدء في الحرب- الدعوة إلي الاسلام، أو العهد، أو الحرب عن عطاء بن يسار، أن رسول ﷺ، بعث عليا بن ابى طالب رضى الله عنه مبعثا، فقال له: أمض ولا تلتفت، قال: يارسول الله،كيف أصنع بهم، قال: اذا نزلت بساحتهم، فلا تقاتلهم حتي يقاتلوك، فان قاتلوك، فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا، فان قتلوا منكم قتيلا، فلا تقاتلوهم حتى تريهم اياه، ثم تقول لهم: هل لكم أن تقولوا لا اله إلا الله؟ فان قالوا :نعم، فقل لهم :هل لكم أن تصلوا؟ فان قالوا: نعم، فقل لهم هل لكم أن تخرجوا من أموالكم الصدقة؟ فان قالوا: نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك، والله لأن يهدى الله على يديك رجلا،خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت».

ويستوجب الاسلام اعلان الحرب، ويمنع الغدر، قال الله

---

(١) انظر الآيات ٣٩-٤١ من سورة الحج.

(٢) انظر الآيات ١٩٠-١٩٣ من سورة البقرة

تعالى: ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين** ﴾ « سورة الأنفال: ٥٨ ».

فلا يجوز للمسلمين أخذ العدو على غرة. هذا المبدأ الأخلاقى لم يستطع القانون الوضعى أن يقرره الا منذ سنين، بمقتضى مؤتمر لاهاى المنعقد عام ١٩٠٧، الذى أوجب ألا تبدأ الأعمال الحربية الا بعد اخطار سابق لا لبس فيه، يكون اما في صورة اعلان حرب مسبب، أو في صورة من انذار نهائى يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين، اذا لم تجب الدولة الموجه لها الانذار طلبات الدولة التي توجهه.

ووضع الاسلام كذلك من القواعد مايضمن تأمين المبعوثين والمفاوضين، كما أوجب العناية بالمرضى والجرحى، ومنع تعذيب العدو أو قتله غيلة، وهى أمور لم تنظم في القانون الوضعى بصفة كاملة، الا بمقتضى اتفاقية جنيف، المبرمة عام ١٨٦٤، والمعدلة بمعاهدة ١٩٠٦، ثم اتفاقية ٢٧ من يوليو ١٩٢٩. ومع ذلك فان ماتقرره للمرضى والجرحى من حماية، أدنى بكثير مما يقرره الاسلام ذلك أن الاتفاقية المذكورة، مع اقرارها مبدأ حماية الجرحى والمرضى الذين يصابون في ميدان القتال، وضرورة العناية بهم، ورعايتهم، أيا كانت جنسيتهم، فان الجريح أو المريض الذى يقع في يد العدو يعتبر أسير حرب، مالم تتفق الدول المحاربة على معاملته معاملة أخرى.

ومن مفاخر الاسلام كذلك تنظيم المعاهدات، فالاسلام وهو حريص على الوفاء بالوعد، قرر صفة المعاهدة الالزامية، وضرورة

احترامها، وتنفيذ بنودها حتى النهاية، فهى نوع من العقد، فلها ما للعقد من القوة الملزمة لطرفيه ﴿ **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. إن الله يعلم ماتفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة** ﴾ « سورة النحل: ٩١–٩٢ ».

والمعاهدات في الاسلام عموما، قصيرة لا تتضمن نصوصا تفصيلية، يختلف مضمونها حسب الغرض الذى من أجله أبرمت المعاهدات، فالمعاهدات الأولى كانت معاهدات دينية وسياسية، ثم ظهرت بعد ذلك المعاهدات الاقتصادية.

وقد فرق المسلمون بين المعاهدات الدائمة، والمعاهدات المؤقتة، ولا تنبىء هذه التفرقة علي ماتتضمنه المعاهدة،ولكن على الطرف الآخر الذى تعقد معه هذه المعاهدة، فهى دائمة إن عقدت مع ذمى، وموقوتة إن كانت هدنة مع حربى وقد اختلف الفقهاء حول مدة المعاهدة، فذهب الحنفية والشافعية، الى أن معاهدة السلم مع غير المسلمين، لا يجوز أن تزيدمدتها على عشر سنين، وذلك قياسا علي معاهدة الحديبية وذهب البعض إلى أن معاهدة الحديبية، لم تبق عملا هذا القدر، فلا يجوز عقد معاهدة صلح مع غيرالمسلمين لمدة تزيد على ثلاث أو أربع سنوات، وذهب بعض الحنابلة إلى أنه يجوز للامام أن يبرم مع غير المسلمين معاهدة لمدة تزيد على عشر سنوات اذا اقتضت المصلحة،كما هو الحال عند ضعف المسلمين، وعدم قدرتهم على مواصلة القتال وانهائه مع العدو.

ونخلص من ذلك إلى أن الرأى في وقتية المعاهدة أو دوامها موكول إلى الامام، يقرر فيه مايكون أكثر ملاءمة لمصالح المسلمين.

واذا رأى الامام اضرار المعاهدة بمصالح المسلمين، جاز له نقضها، واستئناف القتال، على أن يعلن ذلك جهرة. ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله** ﴾ « سورة التوبة: ٣ ».

* * * *

لقد بحث المسلمون القانون الدستورى والادارى تحت اسم السياسة الشرعية والأحكام السلطانية أو مايؤدى هذا المعنى، وقد صنفوا كتبا كثيرة في هذا المجال مثل كتاب « السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية » للامام ابن تيمية الفقيه الحنبلى،ومثل كتاب « الأحكام السلطانية » لأبى الحسن البصري الشافعى المعروف بالماوردى.

وقد كان الكلام عن الخلافة أو رياسة الدولة من مباحث الفقهاء، الا أنه لما اتسع فيه الكلام وأصبح الحديث فيه يتعلق بالعقيدة صار يدرس ويبحث في علم الكلام وصنف فيه ابن قتيبة كتابه « الامامة والسياسة ».

وقد تناول الفقهاء في كتبهم هذه نظام الحكم الاسلامى وقواعده وعلاقة الحاكم بالمحكومين وسلطة ولي الأمر على الأحكام.

بحث الفقهاء في القوانين الجنائية، ونصوا على أن الجناية لا يتحمل مسؤوليتها غير الجانى، وهدمت النظام الذى كان سائدا في

الجاهلية، وتكلموا عن الجريمة والعقوبة وفصلوا القول في الجرائم التى عقوبتها محددة، والجرائم التي ترك الشارع فيها تقدير العقوبة للقاضى؛ وعرفوا العفو عن الجريمة وأثره في سقوط حق المجنى عليه وحق العامة، وسقوط العقوبة إلى غير ذلك، كما عرفوا المسؤولية التقصيرية، ومسؤولية المتبوع عن مايرتكبه التابع.

والواقع أن الشريعة الاسلامية لا تشترط في المسؤولية الجنائية النص على الجريمة أو العقاب؛ وليس من المعقول أن يكون التشريع الذي جاء للخلود أن ينص على جرائم وعقوبات بأعينها ثم يقول (لا جريمة ولا عقوبة الا بنص) وقد توسع علماء الشريعة في هذا الباب ومكنوا الحاكم من اتخاذ كل مايراه مقوما للنظام مصلحا للمجتمع.

وقد عرض القرآن لجرائم مخصوصة لها أثر سيء في النظام العام، وفرض لها عقوبات مبينة وهى الجرائم التى ترجع إلى الجناية على النفس والمال والعرض والنسب والعقل والدين والنظام العام.

وبالنسبة للقانون الخاص، سواء منه الدولى الخاص الذى يبحث في الموطن والجنسية ومركز الأجانب في الدولة وتنازع القوانين، أوماينظم علاقات وتصرفات الأفراد والجماعات المالية مما اصطلح على تسميته بالقانون المدنى[١] ومايتصل به من القوانين التجارية والبحرية، أو ماينظم أمر التقاضى بين المتخاصمين سواء الأفرادمع الدولة، كل هذا تناوله الفقهاء بتوسع واستفاضة وأوجدوا

---

(١) من المسلمات أن ثمة نقاط التقاء شتى بين قانون نابليون وبين مذهب مالك يختلفان فيها جميعا مع القانون الرومانى ومع القانون الكنسى، وليس لقاؤهما وليد المصادفات وإنما–هو على الأقل– وليد المجتمع العربى، الذى حكمه القانون الاسلامى طوال قرون طويلة، ووليد القوة العصرية التي تصاحب القواعد القانونية في التشريع الاسلامى، فتجعلها تلائم الزمان والمكان، في حين لم تجتمع أمة من أمم أوربا حتى مطلع القرن التاسع عشر على قانون عصرى أو أية مجموعة قانونية تجرى على مقتضاها، فلم يوضع قانون لفرنسا الا في أوائل القرن التاسع عشر، ولم يوضع لألمانيا قانون الا في نهايته.

فيه من النظريات التشريعية ماهو جدير بالتقدير، وأن جل ماوصلت اليه الحضارات القانونية في هذا سبق إليه الفقه الاسلامى من نحو ألف عام.

فقد بين الفقهاء المسلمون قديما الحقوق والأموال والملكية وطرق التملك وتكلموا عن الملك التام والملك الناقص وأسباب الملكية في كل، وفرقوا بين ملك المنفعة وحق الانتفاع، ودرسوا العقود بعناية وعمق، وعرفوا المقاصة، والكفالة وحوالة الدين وحوالة الحق، كما تناولوا الشخص من ناحية أهليته وفرقوا بين أهلية الوجوب وأهلية الأداء، وتكلموا عن الذمة والشخصية الاعتبارية، كما تناولوا عوارض الأهلية، وعيوب الرضا في العقود، وفرقوا بين الاعسار والأفلاس، وتكلموا عن الوكالة العامة والخاصة، والمطلقة والمقيدة وكذلك تكلموا عن الولاية الذاتية والولاية المتعدية سواء في ذلك الولاية على النفس والولاية على المال، كما تكلموا عن الفضولى وحكم تصرفاته، كما تناولوا التضمين وهو مايقابل في الاصطلاح القانونى المسؤولية المدنية وجعلوا التعويض قسمين:

تعويضا منصوصا عليه كالديات.

وتعويضا غير منصوص عليه وهو مايقدره الحاكم بنفسه، أو بواسطة نوابه من أهل الخبرة كقيم المتلفات المالية أو البدنية التي ليس للشرع فيها تقدير ويسمى (حكومة العدل) وقد نفوا المسؤولية حيث لا ضرر ولا اخلال بحق الغير.

والضرر الذى يترتب عليه التضمين في الفقه الاسلامى منه مايصيب الانسان في نفسه أو ماله أو شرفه أو سمعته كاتلاف عضو

أو مال وكالقذف ونحو ذلك.

عرف القضاء منذ صدر الاسلام، فقد نصب الرسول نفسه في المدينة ليفصل في الخصومات بجانب مايبلغه للناس عن ربه، وكانت طرق الاثبات عنده البينةواليمين وشهادة الشهود، والكتابة والفراسة والقرعة وغيرها؛ وكان الرسول يقول: (**البينة على من ادعى واليمين على من أنكر**) والبينة في الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره،بمعنى أن المدعى ملزم باظهار مايبين دعواه، فاذا أظهر صدقه باحدى الطرق حكم له ، فالحاكم عليه ان يحكم حسبما ظهر له من الحق، وأمَّا السرائر فيتولها الله.

ولما انتشرت الدعوة عين الرسول بعض أصحابه على القضاء، فقد أرسل عليا بن أبي طالب إلى اليمن ليقضى فيهم وقال: « **اذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضى لأحدهما حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء** ».ويروى أنه عرضت على على كرم الله وجهه قضية فقال: أقضي بينكم فإن رضيتم فهو القضاء، والا حجزت بعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ليقضي بينكم». فلما قضى بينهم أبوا أن يتراضوا وأتوا الرسول أيام الحج وقصوا عليه ماحدث، فأجاز قضاء علي وقال: « **هو ماقضى بينكم** ».

ويفيد قول على: فإن رضيتم فهو القضاء والا حجزت بعضكم عن بعض «أن الطعن في الأحكام عرف عندهم وعمل به، اذ ماحدث إنما هو أشبه باستئناف الحكم أمام سلطة أعلى ممن أصدر

الحكم، كما يفيده قول على : « حتى تأتوا رسول الله ليقضى بينكم » فلجؤوهم للرسول لا باعتباره حاكم المسلمين أو المشرع وانما باعتباره قاضيا .

كان عمر بن الخطاب أول من عين من القضاة في الولايات الاسلامية، وقد سن لهولاء القضاء دستورا يسيرون على هديه في الأحكام ويعتبر هذا الكتاب أساس علم المرافعات في القضاء، وبعث بهذا الكتاب إلى أبى موسى الأشعرى . وهاك نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس[١] . سلام عليك . أما بعد : فالقضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك[٢]، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . واس بين الناس[٣] فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك[٤] ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فان الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل؛ الفهم الفهم فيما تلجلج[٥] في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه، فان أحضر بينة أخذ بحقه، والا وجهت القضاء عليه، فان

---

(١) هو اسم أبى موسى الأشعرى .
(٢) أى :رفع لك الأمر وجيء به اليك .
(٣) أى :اعدل وساو .
(٤) الحيف : الظلم .
(٥) التلجلج : التردد في الكلام .

ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر.

المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجربا في شهادة زور أو ظنينا[1] في ولاء أو قرابة؛ فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات، واياك والقلق والضجر والتأذى للناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الفخر، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولوعلى نفسه يكفه الله مابينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شأنه الله»[2].

ثم لما اتسعت رقعة الدولة وكثرت الخصومات خصص بعض القضاة في النظر في بعض أنواع القضايا، كما خصص كل قاض لمنطقة محددة لا يتعداها أى أن القضاء تخصص بالمكان والزمان بل وبالأقضية، كما عرف الفقه الاسلامى فكرة المحكمة من تخصيص مكان معين في البلد أو الجهة ومن تقييد القاضى بأيام خاصة في الاسبوع لا يقضى الا فيها. كما عرف القضاء الجزئى والكلى.

كما عرف الفقه الاسلامى نظام التحكيم واشترط الفقهاء في الحكم أن تكون له صفة القاضى، كما عرف نظام النيابة العامة والنيابة الادارية ومحكمة القضاء الادارى وقسم الفتوى والرأى وذلك بما يسمى بولاية الحسبة وولاية المظالم والافتاء.

أما من ناحية المال والملك والنظم الاجتماعية فان الفقهاء

---

(١) الظنين: المتهم.

(٢) الجاحظ: البيان والتبين ٢ / ٢٣، وكتاب الكامل للمبرد الجزء الأول (وشأنه) اى ابغضه الله.

توسعوا في بحث الملكية وموارد المال ومصارفه والقيود التى وضعها الشارع على المالكين وماألزمهم به من واجبات نحو المحتاجين لاعلى سبيل المنة وانما على أنه حق مفروض عليهم في أموالهم يقتضيه التعاون الجماعى والأخاء الانسانى.

ويحث الفقهاء ذلك ضمن أبحاثهم وكتاباتهم عن الزكاة والعشور[١] والخراج[٢] وعن بيان أحكام الكنوز والركاز بل منهم من أفرد ذلك في كتاب خاص كأبى عبيد القاسم بن سلام في كتابه «الأموال» والقاضى أبويوسف في كتابه «الخراج» ويحى بن آدم القرشى في كتابه الذى أسماه «الخراج» أيضا.

فالناحية المالية والاقتصادية وضعت لها في الاسلام قواعد للعدالة الاجتماعية اذ بين مدى حرية الاستثمار ،التملك،وكفل للفقير العاجز عن الكسب حاجته أيا كانت ديانته، ولذا فان التكافل الاجتماعى في نظر الاسلام مكفول الى أبعد الحدود، ودعا اليه ووضع أسسه ولم يقصره على الناحية المالية بل جعله تكافلا في كل النواحى.

يقول هـ. ج. ويلز في كتابه «صانعوا التاريخ» ان الحاح الاسلام الشديد على المساواة بين الناس مهما كانت عقيدتهم أو طبقتهم وتطبيق الأخوة الاسلامية بصفة عملية قد جعلت هذا الدين من أعظم القوى الفعالة في عالمنا الحديث».

---

(١) العشور: هى الضريبة المفروضة على أموال التجارة الصادرة من البلاد الاسلامية، أو الواردة اليها.

(٢) الخراج: هو ماقرر من المال على الأراضى التي كانت في أيدى المشركين، واستولى عليها المسلمون بالحرب والقوة، أو صولح عليها المشركون وبقيت فى أيدى أهلها، وذلك كأراضى فارس والشام ومصر التي فتحت فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

لقد ألبس الدين الاسلامى كل شيء في أمور المسلمين ثوب التشريع، وأخذت الأجيال المتعاقبة في تنمية هذا التشريع،كما تطور في الأزمنة والأمكنة المتباينة حتى وصل الى بناء عظيم ضخم يعتمد على أسس قوية صالحة لتحمل كل جديد، فأصبح بحمد الله تعالي تشريعا منظما للعلاقات الانسانية تنظيما دقيقا،وكفلت تعاليمه اسعاد البشرية وكفالة العيش الكريم لكل فرد في المجتمع.

تقول دائرة معارف «تشامبر» إن أهم التعاليم الاسلامية التي تكشف عن عظمة العقل الذى جاء بها هو النظام الأخلاقى القرآنى- ولا تحصر سورة أو اثنتان أو ثلاثة كل هذه التعاليم ولكنها تنتشر في القرآن كله كالخيط الذهبى الذى يتخلل نسيج الثوب. والقرآن يعتبر الظلم والكذب والكبر والحقد والنميمة والسخرية بالغير والبخل والتبذير والفجور والشك في الناس من الرذائل التي لا يرضاها الله تعالى. أما الاحسان والكرم والحياء والاحتمال والصبر والاعتدال والاخلاص والاستقامة وحب الحق والسلام والايمان بإله واحد والخضوع له، كل هذه الصفات هى أعمدة الحياة النقية والعلاقة التي يتميز بها المؤمن الحق».

ولا شك أن فكرة الدولة في الاسلام ظاهرة بوضوح وجلاء في فكرة الهجرة، فلما آذت قريش المسلمين وعذبتهم في مكة أيقن الرسول الكريم أنه لا بد لحماية الدعوة من وجود قوة ومنعة لأن الحق والحرية يعيشان في ظل القوة والنظام، ونفاذ الأحكام لا يتأتى بدون سلطة، فان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن،كما روى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه.

ومن هنا كان التلازم في الاسلام بين الدعوة إلى الدين وبين قيام الدولة، فليس الاسلام مجرد دين يتعبد به، وإنما هو دين ودولة فجاءت أحكامه لهذا متناولة كل النواحى، وجاءت بأكمل النظم التى تكفل للبشرية كلها الفلاح والصلاح في كل وقت، ولذا فإن نصوص التشريع- كما أشرنا- جاءت مجملة تلمس القواعد الكلية والنقاط الرئيسية ليكون في وسع المجتهدين استنباط أحكام الجزئيات ومايجد في عصورهم على ضوء قواعد التشريع مع ملاحظة مسايرة مصالح الناس.

ولذا فإن أحكام الفقه الاسلامى بمصادره المرنة جعلت الدولة الاسلامية وقد حكمت رقعة فسيحة من العالم من بلاد الصين شرقا إلي المحيط غربا وجزء كبيرا من غرب أوربا وكل شمال أفريقيا من أعظم الدول التى عرفها التاريخ وأعدلها وجعلتها قدوة ومنارة شع على العالم بنور حضارتها ومنبعا وأساسا لكثير من النظم والحضارات ولا غرو فإنه تشريع قام على العلم والتعلم والعدل والمساواة وخاطب العقل في جميع أحكامه.

بين الماضى والمستقبل

وبعد هذا العرض الموجز لأثر الثقافة الإسلامية في الثقافة العالمية وتأثرها بها، وحفظ الإسلام للثقافات السابقة، فإنك واجد أن هذه النهضة العلمية قد ظهرت بين أبناء الصحراء بمجرد انقضاء القرن الأول الهجرى، وبعد أن تأصلت تعاليم الاسلام في النفوس واستقر نفوذه وسلطانه، ففي تلك اللحظة انبعثت العلوم والمعارف،وتفتحت البراعم وظهرت العلوم العربية الاسلامية على كثرة تنوعها، وبعد فترة وجيزة عمت العالم وأصبحت ثقافة عالمية أنارت الطريق أمام الباحثين في كل ميدان، وكانت أساسا للنهضات العلمية والاجتماعية.

يقول المستشرق كويلر يونج رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون عن أثر الاسلام في الغرب المسيحى: فعندما انتقلت عاصمة الاسلام إلى بغداد فى منتصف القرن الثامن الميلادى كان عصر الفتوح قد انتهى، وأصبح ماجاء به القرآن من لغة وقانون ودين يحكم منحدود الصين إلى أعمدة « هرقل ».وفى خلال خمسمائة السنة التي حكم فيها العباسيون نمى الاسلام نظامه الفكرى وثقافته المتجانسة على أساس من الاحياء البارع للمعارف الكلاسيكية في القرنين التاسع والعاشر الميلادى وهو « الرينسانس » الشرقى.

هذا الاحياء الثقافى في ذينك القرنين- وفي القرن الذى تلاهما

حيث بلغت الثقافة الاسلامية قمة تطورها- هو الذى نقل إلي العالم اللاتيني خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وأصبح جزءاً من حضارة العصور الوسطى المسيحية، وهذا بدوره أصبح أساس « الرينسانس » الغربى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر[١].

ويقول جوستاف لوبون[٢]: كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم، وأن المسلمين هم الذين فتحوا لأوربا ماكانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، بتأثيرهم الثقافي، فكانوا بالفعل ممدنين لنا وأئمة لنا طيلة ستة قرون ».

فالمسلمون هم الذين تفجرت فيهم ينابيع العلوم والمعارف وأنهم الذين سبقوا إلى أخذ الثقافات المختلفة وحفظوها وتداولوها بعد أن صهروها فى بوتقة الاسلام وتعاليمه الرفيعة ضنا بها عن أن تنفلت من أيديهم واتباعا لتوجيه نبيهم عليه الصلاة والسلام إذ يقول: (**الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها**). فلم يكونوا جامدين ولا متخلفين ولكن قوة نفوسهم ومضاء عزيمتهم وعظمة قلوبهم وتربية الاسلام لهم دفعهم إلى أن يأخذوا من كل شيء أحسنه، وأن يجولوا في ميادين العلوم ومختلف الثقافات ليحققوا خلافة الله في الأرض ويستعمروها كما أمر الله بالعدالة والقسط كما يقول جل شأنه: ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ « سورة هود: ٦١ ».

لقد سبق المسلمون إلى كل ذلك وغيرهم يغط في سبات عميق

---

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة. جمع وتحقيق محمد خلف الله. القاهرة ١٩٥٠، ص٢٣٢-٢٥٨

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥٧٩.

ويتخبط في ظلام جهله حتى اذا فتح هؤلاء الآخرون أعينهم لتعرف الحقائق بمقتضى التطلع الانسانى الكامن في النفوس والغرائز لم يجدوا لهم مأخذ ينزعون عن قوسه ويعشون إلى ضوئه سوى تلك المعارف الاسلامية التي علمهم دينهم بعضها وأرشدهم إلى تعرف بعضها حتى يستطيعوا أن يحققوا مفاهيم الاسلام في عمارة الأرض والانتفاع بكل مافى الكون مما يعود على الانسانية بالخير والبركة.

يقول الأستاذ فيشر: «في محيط الحضارة الرومانية الجرمانية التليدة جاء الفاتحون المسلمون بتيارات فكرية عذبة من دمشق والقاهرة وبغداد، وأضحوا سبيل الوصل مرة أخرى بين أوربا ومنابع العلوم والفنون في الشرق حين سدت سبل الاتصال بين الغرب والشرق، على أن سر قوة العرب هو أن حضارتهم لم تكن عنصرية بل دينية، فالنقاء العنصرى لم يكن مما استهدفه أو سعى اليه الفاتحون المسلون، اذ تزوجوا من الأسبانيات، ولم يحجبوا عن استجلاب مهرة الفنانين والصناع البيزنطيين، كما اعتمدوا في زراعة الأرض على الفلاحين الوطنيين»[١].

كان هذا حين كانت أمة الاسلام قوية فتية متماسكة ويقظة حية لا هم لها الا ترسم خطى نبيها الكريم وتتبع دعوة الاسلام من ينابيعها على وجهها الصحيح، لا أنها تأخذ هذا الدين على أنه مجرد طقوس وتلاوات أو تعاويذ فلما خلا المسلمون من تلك المعانى الكريمة وتفككت روابطهم ضعف سلطانهم،وتأخروا ويشرح لنا المفكر النمساوى المسلم محمد أسد (ليبولدفايس) أسباب هذا

---

(١) فيشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى ترجمة محمد مصطفى زيادة، والباز العرينى، القسم الثاني، ص٣٩٥.

التأخر في كتابه: «الاسلام على مفترق الطرق» فيقول: إن الحياة الاسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدا جدا عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية الاسلامية، فما كان في الاسلام تقدما وحيوية، أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا.

ويقول: إن ثمة سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين، وذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على ان المسلمين اخذوا شيئا فشيئا يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية، فنتج عن هذا ان الاسلام ظل بعد ذلك موجودا،ولكنه كان جسدا بلا روح لقد تخلفنا، وضعفنا،يوم أن تركنا ديننا الحق.

إننا نستطيع أن ندير محركات قوانا من جديد، فبلادنا الاسلامية هى محور الأرض ،قلب العالم، ومواردنا هى التى تدير عجلات الحضارة، وديننا– من وجهتيه الروحية والمادية– لا يزال بالرغم من العقبات الهائلة التي خلقها تأخر المسلمين– أعظم قوة ناهضة عرفها البشر. فإن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، واذا هم نهجوا نهج أسلافهم الأولين في الافادة من تلك القيم في اصلاح حياتهم وتنظيم صفوفهم وجمع كلمتهم استطاعوا أن يكونوا عاملا مؤثرا في توجيه الانسانية إلى الخير، وفي مقاومة عوامل الجشع والاستغلال التي تعكر السلام، وتفسد العلاقات الدولية، وتهدد العالم بالدمار والفناء.

لقد حققت أمم العالم الكبرى تقدما علميا ماديا مذهلا، وامتلكت بذلك من أساليب السيطرة والقهر والدمار ماينذر بالشر

المستطير، ومكمن الداء في حضارة العالم المعاصر أنها حضارة علمية مادية، تقدم علمها وتأخرت ثقافتها فأفلت زمامها من يد البشرية، ولم تستطع محاولاتها بعد أن ترده إلى قيم روحية أو أخلاقية وازعة،وقد تنبه لهذا الخطر بعض علماء الغرب فقالوا: اذا لم ينجح الغرب في الموازنة بين تقدمه الروحى والثقافى وتقدمه العلمى فإن الحضارة الأوربية ستصير إلى الفناء. يقول الفيلسوف الألمانى شلنجر في كتابه «أفول الغرب» إن الحضارة الاوربية طغت فيها المادية على الروح،وهذا بداية النهاية لها، رغم مانخدع به البصر،من التقدم العمرانى والمادى.

ثم يقول: ومامرحلة الحضارة الحالية الا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى، فهى سائرة بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة، تلك سنة الوجود ولا راد لأمر الله.

ثم يقول: إن الحضارة دورات فلكية، تغرب هنا لتشرق هناك، وإن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة، هى حضارة الاسلام الذى يملك اليوم أقوى قوى روحانية عالمية نقية».

والمتتبع للمكتبة الأوربية،يرى سيلا من الكتب المتلاحقة، تبكى حضارة أوربا الغارقة في اللهب، المنبعث من مصانعها ومعالمها، وترثى قلبها الذى أوشك على الهمود، بعد أن جحد وألحد، وابتعد عن رب الحياة وخالقها.

والمسلمون اليوم هم أجدر الناس بانتشال الانسانية من بحور الشر والضلال فهم وحدهم بما يملكون من عقيدة فريدة يستطيعون

احلال السلام والوئام محل اللدد والخصام في قلب الانسانية الذى يكاد ينزف آخر قطرة من قطرات الحياة.

وذلك فضل يؤتيه من اتبع رضوانه، وقام على سبل الحق والعدل والسلام.

المحتويات

صدر من هذه السلسلة

الرقم	العنوان	المؤلف
١	تأملات في سورة الفاتحة	د. حسن باجودة
٢	الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه	أ. أحمد محمد جمال
٣	الرسول في كتابات المستشرقين	أ. نذير حمدان
٤	الإسلام الفاتح	د. حسين مؤنس
٥	وسائل مقاومة الغزو الفكري	د. حسان محمد مرزوق
٦	السيرة النبوية في القرآن	د. عبد الصبور مرزوق
٧	التخطيط للدعوة الإسلامية	د. محمد علي جريشة
٨	صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية	د. أحمد السيد دراج
٩	التوعية الشاملة في الحج	أ. عبد الله بوقس
١٠	الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره	د. عباس حسن محمد
١١	لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢	السنة في مواجهة الأباطيل	أ. محمد طاهر حكيم
١٣	مولود على الفطرة	أ. حسين أحمد حسون
١٤	دور المسجد في الإسلام	أ. محمد علي مختار
١٥	تاريخ القرآن الكريم	د. محمد سالم محيسن
١٦	البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام	أ. محمد محمود فرغلي
١٧	حقوق المرأة في الإسلام	د. محمد الصادق عفيفي
١٨	القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته [١]	أ. أحمد محمد جمال
١٩	القراءات أحكامها ومصادرها	د. شعبان محمد اسماعيل
٢٠	المعاملات في الشريعة الإسلامية	د. عبد الستار السعيد
٢١	الزكاة فلسفتها وأحكامها	د. علي محمد العماري
٢٢	حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	د. أبو اليزيد العجمي
٢٣	الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	أ. سيد عبد المجيد بكر
٢٤	الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	د. عدنان محمد وزان
٢٥	الإسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة
٢٦	تربية النشء في ظل الإسلام	د. محمد محمود عمارة
٢٧	مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي	د. محمد شوقي الفنجري
٢٨	وحي الله	د. حسن ضياء الدين عتر
٢٩	حقوق الإنسان وواجباته في القرآن	أ. حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠	المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	أ. محمد عمر القصار
٣١	القرآن كتاب أُحكمت آياته [٢]	أ. أحمد محمد جمال

٣٢-	الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج	د. السيد رزق الطويل
٣٣-	الاعلام في المجتمع الإسلامي	أ. حامد عبد الواحد
٣٤-	الالتزام الديني منهج وسط	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٣٥-	التربية النفسية في المنهج الإسلامي	د. حسن الشرقاوي
٣٦-	الإسلام والعلاقات الدولية	د. محمد الصادق عفيفي
٣٧-	العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨-	معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها	د. محمود محمد بابللي
٣٩-	النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	د. علي محمد نصر
٤٠-	من التراث الاقتصادي للمسلمين	د. محمد رفعت العوضي
٤١-	المفاهيم الاقتصادية في الإسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢-	الأقليات المسلمة في أفريقيا	د. سيد عبد المجيد بكر
٤٣-	الأقليات المسلمة في أوروبا	د. سيد عبد المجيد بكر
٤٤-	الأقليات المسلمة في الأمريكتين	د. سيد عبد المجيد بكر
٤٥-	الطريق إلى النصر	أ. محمد عبد الله فودة
٤٦-	الإسلام دعوة حق	د. السيد رزق الطويل
٤٧-	الإسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨-	دحض مفتريات	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩-	المجاهدون في فطان	أ. محمد ضياء شهاب
٥٠-	معجزة خلق الإنسان	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١-	مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية	د. سيد عبد الحميد مرسي
٥٢-	ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربي والماركسي	أ. أنور الجندي
٥٣-	الشورى سلوك والتزام	د. محمود محمد بابللي
٥٤-	الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أ. أسماء عمر فدعق
٥٥-	مدخل إلى تحصين الأمة	د. أحمد محمد الخراط
٥٦-	القرآن كتاب أُحكمت آياته [٣]	أ. أحمد محمد جمال
٥٧-	كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨-	الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩-	نظرات في قصص القرآن	أ. محمد قطب عبد العال
٦٠-	اللسان العربي والإسلامي معاً في مواجهة التحديات	د. السيد رزق الطويل
٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	أ. محمد شهاب الدين الندوي
٦٢-	المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان	د. محمد الصادق عفيفي
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	د. رفعت العوضي
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦-	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	أ. عبد الغفور عطار

الرقم	العنوان	المؤلف
٦٧-	العدل والتسامح الإسلامي	أ. أحمد المخزنجي
٦٨-	القرآن كتاب أُحكمت آياته [٤]	أ. أحمد محمد جمال
٦٩-	الحريات والحقوق الإسلامية	أ. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠-	الإنسان الروح والعقل والنفس	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١-	موقف الجمهوريين من السنة النبوية	د. شوقي بشير
٧٢-	الإسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣-	تأملات قرآنية	د. عصمة الدين كركر
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	أ. أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والإسلام	أ. سعد صادق محمد
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	د. علي محمد نصر
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	أ. محمد قطب عبد العال
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩-	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	أ. سراج محمد وزان
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١-	كيف بدأ الخلق	أ. عيسى العرباوي
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة	أ. أحمد محمد جمال
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	أ. صالح محمد جمال
٨٤-	المبادىء الاجتماعية في الإسلام	أ. محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦-	الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧-	من حديث القرآن على الإنسان	د. علي محمد حسن العماري
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	أ. محمد الحسين أبو سم
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الإسلام	أ. جمعان عايض الزهراني
٩٠-	القضاء في الإسلام	أ. سليمان محمد العيضي
٩١-	دولة الباطل في فلطسين	الشيخ القاضي محمد سويد
٩٢-	المنظور الإسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم جابر
٩٣-	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	أ. رحمة الله رحمتي
٩٤-	الفطرة وقيمة العمل في الإسلام	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥-	أُوصيكم بالشباب خيراً	أ. أحمد محمد جمال
٩٦-	المسلمون في دوائر النسيان	أ. أسماء أبو بكر محمد
٩٧-	من خصائص الإعلام الإسلامي	أ. محمد خير رمضان يوسف
٩٨-	الحرية الاقتصادية في الإسلام	د. محمود محمد بابللي
٩٩-	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	أ. محمد قطب عبد العال
١٠٠-	مواقف من سيرة الرسول ﷺ	أ. محمد الأمين
١٠١-	اللسان العربي بين الانحسار والانتشار	الشيخ محمد حسنين خلاف

الرقم	العنوان	المؤلف
١٠٢	أخطار حول الإسلام	السيد هاشم عقيل عزوز
١٠٣	صلاة الجماعة	د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤	المستشرقون والقرآن	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥	مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية	أ. أنور الجندي
١٠٦	الاقتصاد الإسلامي هو البديل	د. شوقي أحمد دنيا
١٠٧	توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ	أ. عبد المجيد أحمد منصور
١٠٨	المخدرات مضارها على الدين والدنيا	د. ياسين الخطيب
١٠٩	في ظلال سيرة الرسول ﷺ	أ. أحمد المخزنجي
١١٠	أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	أ. محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١	زينة المرأة بين الإباحة والتحريم	د. حياة محمد علي خفاجى
١١٢	التربية الإسلامية كيف نرغبها لأبنائنا	د. سراج محمد عبد العزيز وزان
١١٣	النموذج العصري للجهاد الأفغاني	أ. عبد رب الرسول سياف
١١٤	المسلمون حديث ذو شجون	أ. أحمد محمد جمال
١١٥	الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم	أ. ناصر عبد الله العمار
١١٦	المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات	أ. نور الإسلام بن جعفر علي آل فايز
١١٧	آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم	د. جابر المتولي تميمة
١١٨	اللباس في الإسلام	أ. أحمد بن محمد المهدي
١١٩	أسس النظام المالي في الإسلام	أ. محمد أبو الليث
١٢٠	المستشرقون والقرآن [٢]	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٢١	الإسلام هو الحل	أ. محمد سويد
١٢٢	نظرات في قصص القرآن	أ. محمد قطب عبد العال
١٢٣	من حصاد الفكر الإسلامي	د. محمد محي الدين سالم
١٢٤	خواطر اسلامية	أ. ساري محمد الزهراني
١٢٥	الإسلام ومكافحة المخدرات	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٢٦	دروس تربوية نبوية	أ. صالح أبو عراد الشهري
١٢٧	الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل	د. عبد الحليم عويس
١٢٨	من سمات الأدب الإسلامي	د. مصطفى عبد الواحد
١٢٩	خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول]	أ. أحمد محمد جمال
١٣٠	خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني]	أ. أحمد محمد جمال
١٣١	المسجد البابري قضية لا تنسى	أ. عبد الباسط عز الدين
١٣٢	التدريس في مدرسة النبوة	د. سراج عبد العزيز الوزان
١٣٣	الإعلام الإسلامي ووسائل الاتصال الحديث	أ. ابراهيم اسماعيل
١٣٤	تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام	د. حسن محمد باجودة
١٣٥	منهاج الداعية	أ. أحمد أبو زيد
١٣٦	في جنوب الصين	الشيخ محمد بن ناصر العبودي

١٣٧	التنمية والبيئة دراسة مقارنة	د. شوقي أحمد دنيا
١٣٨	الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل	د. محمود محمد بابللي
١٣٩	سقوط الأيديولوجيات	أ. أنور الجندي
١٤٠	الطفل في الإسلام	أ. محمود الشرقاوي
١٤١	التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها	أ. فتحي بن عبدالفضيل بن علي
١٤٢	لمحات من الطب الإسلامي	د. حياة محمد علي جفاجي
١٤٣	الإسلام والمسلمون في ألبانيا	د. السيد محمد يونس
١٤٤	أحمد محمد جمال (رحمه الله)	مجموعة من الأساتذة الكُتّاب
١٤٥	الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية	أ. أحمد أبو زيد
١٤٦	الإسلام والنظام العالمي الجديد (الطبعة الثانية)	د. حامد أحمد الرفاعي
١٤٧	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	أ. محمد قطب عبد العال
١٤٨	الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي	أ. زيد بن محمد الرماني
١٤٩	الماسونية والمرأة	أ. جمعان بن عايض الزهراني
١٥٠	جوانب من عظمة الإسلام	أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٥١	الأسرة المسلمة	د. حسن محمد باجودة
١٥٢	حرب القوقاز الأولى	د. أحمد موسى الشيشاني
١٥٣	المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة النبوية – الجزء الثاني	أ. زيد بن محمد الرماني
١٥٤	المسلمون في جمهورية الشاشان وجهادهم في مقاومة الغزو الروسي	د. السيد محمد يونس
١٥٥	القدس في ضمير العالم الإسلامي	اعداد مجموعة من الباحثين
١٥٦	الطريق إلى الوحدة الإسلامية	اعداد مجموعة من الباحثين
١٥٧	المركز القانوني الدولي لمدينة القدس	د. جعفر عبد السلام
١٥٨	الحوار النافع بين أصحاب الشرائع	أ. عبد الرحمن الحوراني
١٥٩	الإنسان والبيئة	أ. علي راضي أبو زريق

طبع بمطابع رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة